

هديـة
مع مجلة تراث

كتاب تُراث (10)

الفكر التربوي التراثي

الخطيب البغدادي أنموذجاً

د. بوزيد الغلى

كتاب تراث (10)

الفكر التربوي التراثي

الخطيب البغدادي أنموذجاً

د. بوزيد الغلى

الفكر التربوي التراثي
الخطيب البغدادي أنموذجاً

د. بوزيد الغلى

الطبعة الأولى 2012

الناشر: نادي تراث الإمارات

هاتف: 2223000 2 00971

فاكس: 6582282 2 00971

ص.ب: أبو ظبي 27765

Email turathmag1@gmail com

الفكر التربوي التراثي

الخطيب البغدادي أنموذجاً

قائمة المحتويات

استهلال

تسعى هذه السِّلسلةُ إلى استكمال الدور الذي تضطلع به مجلة تراث في تعبئة مصطلح التراث بمعناه وإخراجه من الحيز الضيق، الذي يأسره في قطاع معين من الثقافة (التقليدية أو الشعبية)، إلى رحابة أفقه الأوسع الذي يشمل كل ما أورثتنا إياه أمتنا، بل والأمم الأخرى، من الخبرات والإنجازات الأدبية والفنية والعلمية.

فالتراث بهذا المعنى، هو تاريخ الأمة السياسي والاجتماعي، والنُّظُم الاقتصادية والقانونية التي شرعتها، ومجموع خبراتها الأدبية ومنجزاتها في الطب والكيمياء والفلك والفيزياء، وعلم الاجتماع وعلم النفس، وفن التصوير، والعمارة والتزيين، يضاف إلى ذلك الخبرات المكتسبة عن طريق الممارسات اليومية والعلائق الاجتماعية التي كثيراً ما تصاغ في حكايات وخرافات وأمثال وحكم ومزح تجري على ألسنة الناس بأساليب تعبيرية متنوعة، تعكس خبراتهم النفسية والوجدانية ونشاطاتهم التخيلية، ومواقعهم الاجتماعية ومواقفهم السياسية.

إن أحد أهداف هذه السِّلسلة هو إتاحة الفرصة لقراءة متأنية للثروةً المعرفيَّةً الكبيرةً المختزلة في هذا المصطلح «التراث»، الذي بات لكثرة ما دار حوله من خلافات موسوماً تارة بالحيرة إلى حد الإلغاز، وتارة بالبساطة إلى حد الإخلال، إلا أن الأمر الذي لا يجوز الاختلاف عليه هو أن التراث يظل المخزن الأهم والسجل الأول لإبداعات الإنسان، يحتوي على الطريف والغريب والمُدهش، كما يحتوي على العظيم والنفيس والأصيل، يتجاور فيه الغث والسمين، المحكي بالفصيح، المموارب بالصريح، وهو في كل الأحوال في حاجة إلى من يعيد قراءته فاحصاً في ضوء معطيات كل زمان، مستخلصاً منه ما يصلح زاداً وذخيرة لرحلة البشر في رحلتهم من حاضرهم نحو مستقبل منشود.

كتاب تراث

مقدمة

الحمد لله الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على الرسول المعلم محمد بن عبد الله، وعلى آله و أزواجه وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد،

يتناول هذا البحث المتواضع قضية التربية والتعليم عند علم من أعلام المسلمين «الخطيب البغدادي»، وهو أمر يكتسي أهمية بالغة لاعتبارات منها:

إن بلورة نظرية إسلامية جامعة في التربية والتعليم تجمع بين أصالة الفكرة وشروط التنزيل في الواقع، لا تزال تحتاج إلى توفر تراكم فكري تحدثه البحوث والدراسات في الفكر التربوي عند العرب المسلمين من أجل أن تسهل المقارنة والتمحيص تمهيداً للبناء والتأسيس.

إن حفز الهمم من أجل تأسيس المنهجية الإسلامية في التربية والتعليم ضرورة تمليها حوافز الرغبة في الفكاك من أسار الاستلاب والارتهان للمركزية الغربية التي نسف الاحتكاك غير المتزن بها الروح الإسلامية للتعليم، حيث أقيم الشرخ الوهمي بين علوم الدنيا وعلوم الدين، وحصرت التربية الإسلامية في دروس ليست سوى نتف مبتورة، غالباً ما تحلق بالمتعلم بعيداً عن آلام الواقع وآماله، لتصف له كيف يقسم ميراث جده، وشركة المترفين من بني جلدته غير متسائلة عن حاله المعبر عن مأساة الفقر وذل الحاجة.

إن الحاجة ماسة لقراءة التراث العربي الإسلامي في ميدان التأديب والتعليم من دون تمحل أو إسقاط أو إفراط في التقريظ والامتداح لمدرسة أو اتجاه فقهي أو فلسفي أو صوفي أو غيرهما بشكل يضعف هامش الموضوعية ويفضي إلى نتائج متهافتة من قبيل ما انتقده الدكتور علي زيعور من زعم البعض أن«الجاحظ قال باللاوعي قبل فرويد، وسبق شتى معطيات علم النفس التربوي الراهن...«مما» يؤدي إلى المنطق «الأهوائي» أي إلى أن نجد في الماضي ما نحب أن نراه فيه»*، لا ما هو متحقق بالفعل.

* انظر: مقدمة كتاب التربية والآداية والتواصل في قطاع أهل الحديث والفقه والعبارة – أدب الاملاء والاستملاء عند السمعاني – تأليف الدكتور علي زيعور – الطبعة الأولى 1413ه/1993م- مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر – بيروت ص6

وصفوة القول، وفي اعتقادي، أن هذا الكتاب المتواضع الذي يتوخى رسم القسمات العامة للفكر التربوي عند الخطيب البغدادي ليس إلا محاولة وخطوة لم تراوح عتبة الطريق السامق، طريق تنقية الموارد الفكرية لهذه الأمة من كل الشوائب والكدورات العالقة انطلاقاً من إرساء قواعد المعرفة على مكين ما خلفه سلف الأمة من ثروة علمية مطمورة في ثنايا شتيت من المصنفات تنتظر من يعقد العزم على مدارستها واستنباش دفائنها ومكنوناتها، خاصة وأن الصفة «الموسوعية» التي ميزت غالبية علماء السلف ومفكريهم جعلت من مؤلفاتهم مزيجاً من الأفكار المنتسبة إلى فروع مختلفة من العلوم «تربية، لغة،سياسة،اقتصاد...»، غير أنها –للأسف– غير منظمة ولا منسقة بالشكل الذي يفيد الباحث ولا يضنيه في الجمع والتتبع، فهي ليست إلا نُثاراً فكريّاً لا يجمعه مشروع منهجي متكامل، وينشأ عن هذا، أن الفكرَ التربوي عند الخطيب البغدادي– موضوع هذه الدراسة–، جاء منثوراً أو متناثراً في مواضع شتى من كتبه، الشيء الذي حملني –ابتداءً– على استقصاء نصوصه وجمعها، ثم ترتيبها وتنظيمها حسب تقارب مضامينها ومعانيها، مما مهّد لي الطريق لوضع تصميم يستوعبها أو يكاد، وهو على الشكل الآتي:

المدخل: وهو عبارة عن مقاربة لمفهومي التربية والتعليم على اعتبار أن توضيحهما ضرورة لا مناص منها ما دام مدار البحث حولهما.

الفصل الأول: ويشمل ترجمة للخطيب البغدادي مستقاة من ثلة من المصادر المختصة في هذا الباب، ككتب التراجم والتاريخ.

الفصل الثاني: ويتضمن عرضاً للفكر التربوي عند الخطيب البغدادي، ويشمل أربعة مباحث:

المبحث الأول: العلم مكانته، فضله، وأهدافه.

المبحث الثاني: العلاقات التربوية.

المبحث الثالث: التدريس: وقته، مواده وآدابه.

المبحث الرابع: طرق التعليم ووسائله.

والحق أني لا أدعي في هذا العمل الزهيد الإحاطة بتفاصيل الموضوع ودقائقه، وليست محاولتي إلا إثارة للاهتمام ولفتا للانتباه من أجل استثمار الذخيرة التراثية التي خلفها السلف ودمجها في المناهج التربوية المعاصرة.

مدخل

أولاً: في مفهوم التربية

جاء في معجم مقاييس اللغة، مادة «رب»[1]: الراء والباء يدل على أصول:

- فالأول: إصلاح الشيء والقيام عليه.. والرب المصلح للشيء، والله عز وجل ثناؤه الرب لأنه مصلح أحوال خلقه.. ويقال: ربَّ فلان ضيعته إذا قام على إصلاحها.
- والأصل الآخر: لزوم الشيء والإقامة عليه. وهو مناسب للأصل الأول.
- والأصل الثالث: ضم الشيء للشيء، وهو أيضا مناسب لما قبله. ومن هذا الباب الربابة وهي العهد... وسمي العهد ربابة لأنه يجمع ويؤلف، وجاء في لسان العرب مادة «ربب»:

رَبَّ ولده والصبي رباً، وربَّبه تربيباً وتَربّة بمعنى رباه تربية.. والمطر يرُب النبات والثرى ينميه.

وربَّ المعروف والضيعة والنعمة يربُّها ربّاً ورباباً، ربَّبها نماها وزادها وأتمها وأصلحها.

ويقال رب القوم بمعنى ساسهم وقادهم.

بتدبر مختلف سياقات استخدام الجذر اللغوي «رب» الواردة أعلاه يمكن أن نستخلص جملة من الخلاصات:

1 -إن التربية عملية إصلاح وتقويم، فالله تعالى يصلح أحوال خلقه بأحكام شريعته، والفلاح يصلح ضيعته بتعهدها بالسقي والتنقية من الطفيليات، يقول أبو حامد الغزالي في هذا السياق:

«ومعنى التربية يشبه فعل الفلاح الذي يقلع الشوك ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع ليحسن نباته ويكمل ريعه...»[2]، فالتربية إذن إصلاح وترشيد وتقويم للاعوجاج.

2 - بتأمل الأصل الثاني نستخلص أن التربية عملية مستمرة مستديمة تستلزم من المربي تؤدة وطول نفس للإقامة على توجيه المربي وتقويم سلوكه، بل إن التربية - علاوة على هذا - عملية مصاحبة للإنسان من ميلاده إلى موته، إذ هو في حاجة

---

1 معجم مقاييس اللغة ص383-382-181 (بتصرف)

2 رسالة أيها الولد المحب ص 121

باستمرار إلى الارتقاء بسلوكه نحو المعالي، وتطوير معارفه ومداركه...

3 - بالنظر إلى ما ورد في لسان العرب نستخلص:

أن التربية تنمية لمختلف قوى واستعدادات ومؤهلات المربى «نفسياً وخلقياً وعقلياً...» فكما يرب المطر النبات لينمو ويستوي على سوقه، يرب المربي المتربي لينمو وتكتمل شخصيته، وكما يسعد الفلاح الذي يقوم بإصلاح ضيعته وتنمية غلاتها، بحسن مردودتها يسعد المربي الذي يرى في نضج المتربي واكتمال شخصيته ثماراً لغرس يده.

إن التربية في جوهرها سياسة وقيادة «رب القوم بمعنى ساسهم وقدهم...» ولعل المعنى ينسجم تماماً مع استعمال علماء المسلمين للفظ «سياسة» في الحقل التربوي.. إذ نجد القابسي مثلاً يعنون بابا في رسالته بسياسة معلم الصبيان، مبيناً أن العلاقة بين المعلم والصبيان علاقة راع برعيته، فهو «المأخوذ بأدبهم» والناظر في زجرهم عما لا يصلح لهم، والقائم بإكراههم على مثل منافعهم، فهو يسوسهم في كل ذلك بما ينفعهم..[3]

وجماع القول: إن التربية تحمل معاني الإصلاح والتقويم والترشيد، وتنمية المواهب والاستعدادات وتطويرها وصقلها، كما أنها فن سياسة وقيادة، لها قواعدها وضوابطها القمينة بإنجاحها. وقد استخلص مؤلفو معجم علوم التربية من خلال استقراء كثير من تعريفات التربية أنها تشترك - رغم اختلافها - في مجموعة من الخصائص العامة والأساسية هي:

1 - التأكيد على أن التربية خاصة بالنوع الإنساني.

2 - اعتبار التربية فعل يمارس من طرف راشد على صغير أو من طرف جيل وصل درجة النضج على الجيل اللاحق به.

3 - التأكيد على أن غرض التربية هو بالأساس مساعدة الأفراد على اكتساب وتنمية مجموعة من الاستعدادات العامة.

4 - التأكيد على أن فعل التربية موجه لتحقيق غاية معينة[4]، تختلف باختلاف الفلسفة التي تؤطر المجتمع وتوجهه، ومن ثم فالتربية على حد تعبير زغلول النجار: «نظام اجتماعي ينبع من عقيدة الأمة وفلسفتها في الحياة، ويقوم على إبراز تلك

---

3 الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين 23-2/21

4 معجم علوم التربية ص:90

العقيدة أو الفلسفة إلى الوجود بغرسها في عقول ونفوس أبنائها منذ الصغر»[5].
وبهذا الاعتبار فالتربية الإسلامية «نظام اجتماعي قوامه القرآن والسنة، وأهدافه تأديب النفس وتصفية الروح وتثقيف العقل وتقوية الجسم فهي تعنى بالتربية الدينية والخلقية والعلمية والجسمية من دون التضحية بأي نوع منها على حساب الآخر»[6]،فهي بهذا تربية متوازنة».

ثانياً: في مفهوم التعليم

جاء في معجم مقاييس اللغة مادة «علم»:

1 – علم «عين، لام، ميم» أصل صحيح واحد يدل على أثر بالشيء يتميز به عن غيره.

وجاء في لسان العرب مادة «علم»:

2 – العلم نقيض الجهل.. وعلمت الشيء أعلمه علماً: عرفته.

وعلمه المعلم وأعلمه إياه فتعلمه، قال تعالى «...معلم مجنون»[7] أي له من يعلمه.

3 – وعلم الأمر وتعلمه: أتقنه.

بتأمل هذه التعريفات يمكن أن نستخلص:

أن التعليم فعل يظهر أثره على المتعلم، إذ يتغير سلوكه وينتقل من حالة جهل إلى حالة علم ووعي. ولعل هذا الاستنتاج يتوافق مع تعريف حمدان زياد للتعليم بأنه «عملية إنسانية اجتماعية منتجة يتم خلالها تحويل أفراد التلاميذ من حالة تحصيلية متدنية غير كافية لأخرى كافية مرغوبة»[8]، فهو بهذا المعنى ارتقاء بمواهب وقدرات المتعلم نحو الأفضل.

نستخلص مما ساقه صاحب لسان العرب، أن التعليم ممارسة وإنجاز يباشره طرفان: معلم ومتعلم، فعن الأول يصدر فعل التعليم، وهو المشار إليه بمقتضى مفهوم قوله تعالى: «...معلم مجنون» أي له من يعلمه. وأما الثاني، فهو الذات التي

---

5 أزمة التعليم المعاصر وحلولها الإسلامية ص:131

6 معجم علوم التربية ص: 94

7 سورة الدخان: الآية 14

8 معجم علوم التربية ص:102

تتلقى التعليم «متعلم»، وهو المشار إليه بمنطوق قوله تعالى «معلم مجنون» أي متعلم.

وجماع القول إن التعليم فن يتطلب دربة ومهارة وقدرة على التأثير في المتعلم، وإقداره على اكتساب مجموعة من المعارف والسلوكات، ولعله يشترك مع التربية في كونه فعلاً يمارسه جيل أكثر نضجاً ورشداً على جيل أدنى منه.

الفصل الأول
ترجمة الخطيب البغدادي

أولاً: نسبه وتكوينه العلمي

هو الحافظ أبو بكر بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي المعروف بالخطيب، ولد يوم الخميس لست بقين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة أي392هـ[9].

كان أبوه على إلمام بالعلم، وحفظ القرآن على أبي حفص الكتاني، وكان خطيباً بقرية درزيجان من سواد العراق[10]، وبهذا فأبو بكر سليل أسرة علم ودين.

ابتدأ الخطيب حياته العلمية وهو ابن إحدى عشرة سنة ببلدته ببغداد، حيث تتلمذ على شيوخ منهم أبو بكر البرقاني وأبو الحسن بن الصلت الأهوازي وهلال الحفار وابن الفوارس.. غير أنه لم يكتف بتحصيل العلم في حدود بلدته، إذ ارتحل إلى البصرة وهو ابن عشرين سنة، ومنها انتقل إلى نيسابور في سن الثالثة والعشرين ثم إلى أصبهان والحجاز والشام[11]. قال رحمه الله بهذا الصدد:

«استشرت البرقاني في الرحلة إلى ابي محمد بن النحاس بمصر أو إلى نيسابور، إلى أصحاب الأصم فقال: إنك إن خرجت إلى مصر إنما تخرج إلى واحد إن فاتك ضاعت رحلتك، وإن خرجت إلى نيسابور ففيها جماعة إن فاتك واحد أدركت من بقي، فخرجت إلى نيسابور»[12]، وبهذا درس على أبي بكر الجبري وأبي حازم العبدوي وغيرهما، وبأصبهان تتلمذ على يد أبي نعيم الأصبهاني.

ذكر ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق الكبير أن أبا بكر البرقاني كتب إلى أبي نعيم الأصبهاني يقول: « وقد نفذ إلى ما عندك عمداً متعمداً أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت أيده الله وسلمه، ليقتبس من علومك ويستفيد من حديثك، وهو بحمد الله ممن له في هذا الشأن سابقة حسنة وقدم ثابت وفهم به حسن. وقد رحل فيه وفي طلبه، وحصل له من منه ما لم يحصل لكثير من أمثاله الطالبين له، وسيظهر لك منه عند الاجتماع من ذلك، مع التورع والتحفظ وصحة التحصيل ما يحسن لديك موقعه وتجمل عندك منزلته»[13].

وتذكر بعض المصادر أن الخطيب أخذ الفقه عن أبي الحسن المحاملي، والقاضي

---

9 طبقات الشافعية الكبرى ج2 ص12

10 تذكرة الحفاظ ج 3 ص 1135

11 طبقات الشافعية الكبرى ج2 ص12

12 سير أعلام النبلاء ج 18 ص 275-274

13 انظر تهذيب تاريخ دمشق الكبير 1/401

أبي الطيب الطبري.. وقرأ صحيح البخاري على كريمة المروزية...[14]

قال السمعاني: وشيوخه أكثر من أن يذكروا...[15]

أما تلاميذه والرواة عنه فمنهم أبو الفضل بن خيرون والفقيه نصر المقدسي وأبو عبد الله الحميدي وعبد العزيز الكتاني وأبو نصر بن ماكولا...[16]

ثانياً: آثاره العلمية

قال ابن خلكان: «ولو لم يكن له «أي الخطيب البغدادي» سوى التاريخ «تاريخ بغداد» لكفاه، فإنه يدل على اطلاع عظيم، وصف قريباً من مائة مصنف وفضله أشهر من أن يوصف»[17].

وقال السمعاني «له ستة وخمسون مصنفاً».[18]

لا نجد في المصادر التي ترجمت للخطيب إحصاء دقيقاً لمصنفاته، وإن كانت تجمع على أنه أكثر من التصنيف، حتى ان المترجمين له عرفوه بكثرة التأليف، فقال الذهبي «الحافظ الكبير الإمام محدث الشام أبو بكر أحمد بن علي البغدادي صاحب التصانيف...»[19]. وقال ابن عساكر: «أبو بكر الخطيب الفقيه الحافظ أحد الأئمة المشهورين والصنفين المكثرين»[20]. وقال ابن الجوزي «فهذا الذي ظهر لنا من تصانيفه، ومن نظر فيها عرف قدر الرجل وما هيئ له مما لم يهيأ لمن كان أحفظ منه كالدار قطني وغيره...»[21].

ويظهر من خلال قائمة كتبه التي ذكرها الذهبي في تذكرة الحفاظ[22]، أنها تناولت جل علوم الإسلام من حديث وفقه وأصول فقه بالإضافة إلى الأدب والتاريخ.

---

14 انظر: شذرات الذهب 2/312،وطبقات الشافعية

15 أنظر: الأنساب 5/151

16 أنظر: تذكرة الحفاظ ص 1196

17 أنظر: وفيات الأعيان وأبناء الزمان 1/1143

18 أنظر: تذكرة الحفاظ 2/1440

19 أنظر: تذكرة الحفاظ ص:1135

20 أنظر: تهذيب دمشق الكبير 1/399

21 أنظر: معجم الأدباء 2/21

22 انظر: تذكرة الحفاظ ص:1440

أ-علوم الحديث: ومن بين مصنفاته في هذا المضمار:

1 - الرباعيات. 2 - المسلسلات. -3 الكفاية في علوم الرواية.
4 -الفصل والوصل. 5 - الإجازة للمعدوم. 6 - شرف أصحاب الحديث.
7 - الجامع لأخلاق الراوي و آداب السامع. 8 - اقتضاء العلم العمل. -9 المتفق والمفترق. 10 - التبيين لأسماء المدلسين. 11 - الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة.

ب - الفقه:

يظهر من خلال عناوين الكتب الآتية أن محتواها فقهي محض:
كتاب البسملة وأنها من فاتحة الكتاب.
العمل بشاهد ويمين.

ج- أصول الفقه:

-1 كتاب الفقيه والمتفقه: وهو كتاب المصنف في تضاعيفه قضايا أصولية من مثل المحكم والمتشابه، الأمر والنهي، العموم والخصوص، المبين والمجمل، إلا أنه لم يقتصر على هذه المباحث الأصولية، بل تجاوزها إلى تناول قضايا أخرى من قبيل آداب الفقيه والمتفقه.

د- الأدب:

تذكر المصادر وكتب التراجم[23]، أن الخطيب اهتم بالأدب والشعر، وألف كتاب البخلاء على غرار بخلاء الجاحظ، كما ألف كتاب التطفيل وفيه حكايات الطفيليين و أخبارهم ونوادرهم، كما أورد له البعض أشعاراً نسوق منها هذه الأبيات:
قال غيث بن علي أنشدنا الخطيب لنفسه:

إن كنت تبغي الرشاد محضا
لأمر دنياك والمعاد
فخالف النفس في هواها
إن الهوى جامع الفساد

---

23 انظر: تذكرة الحفاظ ص: 2/1440

قال أبو القاسم النسيب: أنشدنا أبو بكر الخطيب لنفسه:

لا تغبطن أخا الدنيا لزخرفها

ولا للذة فخر عجلت فرحا

فالدهر أسرع شيء في تقلبه

وفعله بين الخلق قد وضحا

كم شارب عسلا فيه منيتــه

وكم تقلد سيفا من به ذبحا[24]

وجماع القول، إن شعر الخطيب-رحمه الله-يفوح حكمة، وينبئ عن جودة قريحة.

هـ-التاريخ:

نقل ابن عساكر عن الخطيب قوله إنه لما حج وشرب ماء زمزم، سأل الله تعالى حاجات، أولاها أن يحدث بتاريخ بغداد[25]. وفعلاً فقد أعطاه الله سبحانه مسألته، وكتب تاريخ بغداد في عشرين جزءاً تشهد له بسعة الاطلاع، حتى قال بعضهم: «وله تاريخ بغداد الذي لم يصنف مثله»[26].

وصفوة القول، إن الخطيب رحمه الله قد خلف تركة علمية ضخمة تدين له بها أجيال الأمة اللاحقة.

ثالثاً: صفاته وثناء العلماء عليه

قال السمعاني: كان الخطيب مهيباً وقوراصاً ثقة متحرياً، حسن الخط كثير الضبط، ختم به الحفاظ[27].

وقال بعضهم: كان حسن القراءة جهوري الصوت[28] وقال ابن ماكولا «كان أبو بكر الخطيب أخر الأعيان ممن شاهدناه معرفة وحفظاً و إتقاناً وضبطاً لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم...»[29].

---

24 سير أعلام النبلاء 18/295

25 انظر: تهذيب تاريخ دمشق الكبير 1/399

26 شذرات الذهب 2/312

27 تذكرة الحفاظ ص:1139

28 شذرات الذهب 1/399

29 تذكرة الحفاظ ص:1137

وقال مكي بن عبد السلام «...وكان ثقة حافظاً متيقظاً متحرزاً مصنفاً»[30].

وقال المؤتمن الساجي «ما أخرجت بغداد بعد الدار قطني أحفظ من أبي بكر الخطيب»[31].

وقال السمعاني: سمعت يوسف بن أيوب يقول: حضر الخطيب درس شيخنا أي إسحاق فروى أبو إسحاق حديثا من رواية بحر بن كنيز السقاء ثم قال للخطيب ما تقول فيه؟ فقال: إن أذنت لي ذكرت حاله. فانحرف أبو إسحاق وقعد كالتلميذ،وشرع الخطيب يقول وشرح أحواله شرحاً حسناً. فأثنى الشيخ عليه وقال:هذا دار قطني عصرنا.

وهكذا عرف القوم جميعاً للرجل قدره وفضله فمدحه شاعرهم بقوله:

فاق الخطيب الورى صدقا ومعرفة

فأعجز الناس في تصنيفه الكتبا

حمى الشريعة من غاو دنسها

بوضعه ونفى التدليس والكذبا

جلا محاسن بغداد فأودعها

تاريخه مخلصا لله محتسبا

وقام في الناس بالقسطاس منزويا

عن الهوى وأزال الشك والريبا[32]

أجل، ما عدل الشاعر عن الصدق، فقد وصفه بما فيه، إذ إنه أكثر التصنيف وحارب الوضع والتدليس، تشهد له بذلك هذه الرواية:

قال الفضل بن عمر النسوي: إن بعض اليهود أظهر كتاباً وادعى إنه كتاب رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بإسقاط الجزية عن أهل خيبر وفيه شهادات الصحابة رضي الله عنهم وذكر أن خط علي فيه. فعرض على الخطيب فتأمله، وقال هذا مزور لأن فيه شهادة معاوية وهو أسلم عام الفتح وخيبر فتحت قبل ذلك ولم يكن مسلما في ذلك الوقت ولا حضر ما جرى، وفيه شهادة سعد بن معاذ ومات في بني

---

30 تهذيب تاريخ دمشق الكبير ص:402

31 سير أعلام النبلاء ص:276

32 سير أعلام النبلاء ص:231

قريظة بسهم أصابه في أكحله يوم الخندق. وذلك قبل فتح خيبر بسنتين[33].

رابعاً: ابتلاؤه

إن استقراء دروس سير الأنبياء والعلماء المجاهدين، يفيد أن الابتلاء والتمحيص بالمحن سنة إلهية جارية مطردة. وعلى غرار غيره من الدعاة تعرض الخطيب البغدادي للاضطهاد وتضييق الخناق.

قال ابن طاهر: أخبرنا مكي الرميلي قال: «كان سبب خروج الخطيب من دمشق أنه كان يختلف إليه صبي مليح، فتكلم فيه الناس، وكان أمير البلد رافضياً متعصباً، فجعل ذلك سبباً للفتك بالخطيب، فأمر صاحب شرطته أن يأخذ الخطيب بالليل ويقتله، وكان سنياً، فقصده تلك الليلة في جماعته. فأخذه وقال له ما أمر به ،ثم قال: لا أجد لك حيلة إلا أنك تفر منا وتهجم على دار الشريف أبي الحسن العلوي، وأنا لا أطلبك، وارجع إلى الأمير فأخبره، ففعل ذلك، فأرسل الأمير إلى الشريف أن يبعث له به، فقال له: أيها الأمير أنت تعرف اعتقادي فيه وفي مثله، وليس في قتله مصلحة، وهو مشهور بالعراق، إن قتلته قتل به جماعة من الشيعة، وخربت المشاهد. فقال: فماذا ترى؟ قال: أرى أن تخرجه من بلدك. فأمر بإخراجه إلى صور وأقام بها مدة[34].

خامساً: مرضه وموته

تذكر كتب التراجم أنه كانت للخطيب ثروة ظاهرة فرقها في أبواب الخير[35]. وما بقي منها عهد به لابن خيرون لينفقه في سبيل الله، ووقف كتبه على المسلمين[36].

وقد أصابه المرض في رمضان من سنة ثلاث وستين وأربعمائة «463هـ» واشتد به في أول ذي الحجة ومات يوم سابعه، وكان أبو إسحاق الشيرازي ممن حمل نعشه، وسار في جنازته خلف كثير يتقدمهم نفر ينادون: هذا الذي كان يدب عن النبي «صلى الله عليه وسلم» الكذب[37] ، هذا الذي كان يحفظ حديث رسول الله «صلى الله

---

33 طبقات الشافعية الكبرى 2/14

34 تذكرة الحفاظ ص: 1143

35 طبقات الشافعية الكبرى 2/14

36 وفيات الأعيان 1/1143

37 سير أعلام النبلاء 18/286

عليه وسلم». ودفن إلى جانب قبر بشر الحافي بباب حرب، بعد أن أوصى بذلك قبل موته[38]. قال السمعاني «والعجب أنه كان في وقته حافظ المشرق، وأبو عمرو ويوسف بن عبد البر صاحب كاتب الاستيعاب حافظ المغرب، وماتا في سنة واحدة»[39].

38 وفيات الأعيان 1/1140

39 وفيات الأعيان 1/1140

الفصل الثاني

الفكر التربوي عند الخطيب البغدادي

المبحث الأول:
العلم: مكانته وأهدافه

تمهيد

يبدو أن تصدير الكلام في الفكر التربوي عند الخطيب البغدادي بمحاولة استكناه طبيعة موقفه من العلم مكانة وأهدافًا ضرورة لابد منها للانطلاق نحو استجماع أطراف نظريته في التربية والتعليم. ولاشك أن الإحاطة بهذا المطلب في نطاق هذا المبحث أمر غير متيسر بحكم عدم الاطلاع على تراث الخطيب الفكري برمته، ولكن محصلة النظر فيما أطلعت عليه من كتبه تسمح بوضع مؤشرات وأبعاد عامة تتحدد من خلالها رؤيته للعلم وهي:

1 -مكانة العلم والعلماء.

2 -العلم بوصفه ضرورة وواجباً شرعياً.

3 -أهداف العلم.

1 -مكانة العلم والعلماء:

إن الناظر المتصفح لما كتبه المفكرون المسلمون على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم الفكرية «علماء، فلاسفة...»، يجد اهتماماً بالغاً بالعلم، إبرازاً لمكانته وتنويها بفضل الاشتغال بطلبه. وقد أشار الزرنوجي في هذا الصدد إلى أن العلم أشرف خصيصة خص بها الله الإنسان وميزه عن غيره من المخلوقات حيث قال: «وشرف العلم لا يخفى على أحد إذ هو المختص بالإنسانية لأن جميع الخصال سوى العلم يشترك فيها الإنسان وسائر الحيوانات كالشجاعة والجراءة والقوة والجود والشفقة وغيرها سوى العلم»[40].

أما الخطيب البغدادي فقد احتج على فضل العلم وعلو منزلته وشرف أصحابه بجملة من النصوص الشرعية اقتبس منها ما يلي:

عن مجاهد في تفسير قوله تعالى «ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً»[41]، قال ليست بالنبوة ولكن الفقه والعلم[42].

وفي الحديث «...و إن العلماء ورثة الأنبياء...»[43].

فيكفي العلم شرفاً ومنزلة أن يثني المعصوم صلى الله عليه وسلم على أهله وطلبته،

---

40 تعليم المتعلم في طريق التعلم ص:31

41 سورة البقرة الآية 267

42 الفقيه والمتفقه ص:28

43 سنن ابي داود-كتاب العلم- باب الحث على طلب العلم.

ويصفهم بأنهم استمرار للنبوة في الأرض «ورثة الأنبياء».

وللتذكير، فليست هذه الشواهد المذكورة أنفاً إلا نزراً يسيراً مما أورده الخطيب في سياق بيان العلم وشرف العلماء.

2 - العلم بوصفه ضرورة وواجباً شرعياً:

ارتباطاً مع توضيحه وبيانه لمنزلة العلم، قرر الخطيب وجوب الاهتمام بطلب العلم، بل دعا بصراحة إلى وجوب تعميم التعليم حيث عنون باباً في أحد كتبه بـ «ما جاء في وجوب تعليم الرجال أولادهم ونساءهم والسادات عبيدهم و إماءهم»[44]. وضمنه أحاديث وأخباراً أورد منها ما يلي:

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير راع و مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهله ومسؤول عن زوجته وما ملكت يمينه»[45].

2- عن الربيع بن سبرة عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين...»[46]

لقد ساق الخطيب هذه الشواهد وغيرها لتدعيم دعوته إلى وجوب تعميم التعليم ليشمل أوسع فئات الأمة لاسيما منها تلك الأكثر تعرضاً للظلم والحيف «صبيان، نساء، عبيد...»، ولعله بهذا الصنيع ظل مخلصاً لمنهجه كمحدث يحرص على استثمار النصوص الشرعية ما أمكن للاحتجاج في مختلف القضايا بخلاف القابسي مثلاً الذي جنح في تقريره لوجوب تعليم أمكن للاحتجاج في مختلف القضايا بخلاف القابسي مثلاً الذي جنح في تقريره لوجوب تعليم الصبيان إلى الاستدلال العقلي بقياس الولد على الوالد حيث قال: « إن حكم الولد في الدين حكم والده ما دام الطفل صغيراً، أفيدع ابنه الصغير لا يعلمه الدين وتعليمه القرآن يؤكد له معرفة الدين؟[47] وبكلمة أخرى، فمعرفة الدين واجبة على الآباء والأبناء معا، وتلك المعرفة فرع عن التعليم، وخاصة تعليم القرآن الكريم، لدى وجب على الوالد تعليم ابنه ليتمكن من معرفة دينه و أداء واجبه».

---

44 الفقيه والمتفقه ص:47

45 صحيح البخاري-كتاب الجمعة-باب الجمعة في القرى والمدن

46 سنن أبي داود-كتاب الصلاة-باب متى يؤمر الغلام بالصلاة.

47 الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين و أحكام المعلمين والمتعلمين 2/2

3 - أهدافه :

لاشك أن العقيدة الإسلامية بمفاهيمها ومبادئها وتصوراتها عن الكون والإنسان والحياة، تؤطر العلم وتوجهه وفق ما يخدم مقاصدها.» والدين الذي يبدأ كتابه الكريم بكلمة «اقرأ»، لا يمكن أن يكون إلا ديناً معرفياً.. يفتح صدره للنشاط المعرفي على مستوى الكون والعالم والوجود لتأكيد القناعات الإيمانية من جهة، ولتعميق الوفاق بين الإنسان المومن وبين العالم الذي يتحرك فيه»[48].

وبهذا الاعتبار، فإن رأس أهداف العلم في التصور الإسلامي، هو أن تتعمق معرفة الإنسان بخالقه، ويتفطن لمعنى وجوده ثم مصيره، ومن ثم يغدو العلم وسيلة لمعرفة الحق. يقول ابن حزم في هذا السياق «إن أفضل العلوم ما أدى إلى الخلاص في دار الخلود و أوصل إلى الفوز في دار البقاء»[49].وينشأ عن هذا، أن كل علم لا يخدم هذه الغاية العظمى وبال وخسارة، ولهذا وجدنا الخطيب رحمه الله يلح كثيراً على ضرورة إخلاص النية وسلامة القصد، حيث قال: «يجب على طالب العلم أن تخلص نيته، ويكون قصده بذلك وجه الله تعالى. ويحذر أن يجعله سبيلاً إلى نيل الأعراض وطريقاً إلى أخذ الأعواض. فقد جاء الوعيد لمن ابتغى ذلك بعلمه...وليتق المفاخرة والمباهاة به...»[50].

إن غياب سلامة القصد في طلب العلم، يسقطه عن مرتبة الاعتبار الشرعي، ولهذا اعتبر ابن حزم تحصيل العلم من أجل الظفر بمطامح أو مطامع دنيوية مذلة وخسارة، إذ قال: «و إنما الداء.. والذم الكامل والخسارة المحضة، حال من اقتنى أرفع العلوم ليحصل به على كسب مال غير وجهه، وصرف علوم في غير طريقه»[51].

وتأسيساً على ما سلف، فإن العلم المقبول في ميزان الشرع هو العلم المسخر للغاية الأخروية، المستنكف عن التوحل بأوحال المغانم والمآرب الدنيوية الدينية، ثم إنه العلم الذي يلازمه العمل، إذ إن العلم إمام العمل، والعمل آلته العلم كما يقول داود الطائي[52].وقد أدرك الخطيب رحمه الله أهمية هذه المسألة فألف كتاب «اقتضاء العلم العمل» مبيناً أن الهدف الأسمى من العلم هو العمل، محذراً من خطورة

---

48 مدخل إلى إسلامية المعرفة ص:18

49 مراتب العلوم ص:62

50 الجامع لأخلاق الراوي و آداب السامع ص: 81/82/83

51 مراتب العلوم ص:76

52 اقتضاء العلم العمل ص: 44

الانفصام بينهما بما أورده من قوارع الأدلة في «باب التغليظ على من ترك العمل بالعلم»[53].

وصفوة القول: «إن رأس أهداف طلب العلم هو نيل السعادة الأبدية عند الله عز وجل» ولو لا طلب النجاة في الآخرة لما كان لطلب شيء من العلوم معنى لأنه تعب، فإذا كان الأمر كذلك، فالعلوم كلها متعلق بعضها ببعض، ولا غرض لها إلا معرفة ما أدى إلى الفوز في الآخرة[54].

---

53 المصدر نفسه ص:46

54 مراتب العلوم ص:9

المبحث الثاني:

العلاقات التربوية

أولاً: في مواصفات الأستاذ والتلميذ

التعليم عملية بنائية تنجزها الذات المتعلمة في تفاعلها مع محيطها «المعلم وزملاء الدراسة»، ومن ثم فإن الحديث عن التعليم بمضامينه وكيفياته، يقتضي ابتداء الحديث عن الأطراف الفاعلة فيه، وعن نوعية العلاقات التي ينبغي أن تربط بينها.

1 - المعلم أو الأستاذ:

إن أول ما يسترعي الانتباه في الفكر التربوي عند الخطيب البغدادي هو إدراكه لمركزية دور الأستاذ أو المربي في العملية التربوية التعليمية إذ يقول: «ولا بد للمتفقه التلميذ من أستاذ يدرس عليه، ويرجع إليه في تفسير ما أشكل عليه، ويتعرف منه طرق الاجتهاد وما يفرق به بين الصحة والفساد»[55]. فالأستاذ هو المعين الذي ينهل منه المتعلم ويتلقى معارفه، لدى كان من الضروري أن يكون في مستوى مهمته ورسالته، إذ على قدر كفاءته التربوية والعلمية تؤتي التربية أكلها، ولهذا يحض التربويون المسلمون التلميذ أو المتعلم على اختيار من يتلقى عنه، يقول الخطيب رحمه الله: «ينبغي للمتعلم أن يقصد من الفقهاء/الأساتذة من اشتهر بالديانة وعرف بالستر والصيانة»[56].ويقول الإمام الزرنوجي:» وأما اختيار الأستاذ أن يختار الأعلم والأورع والأسن...»[57].

فالمعيار الأساس في اختيار الأستاذ يرجع إلى الجوانب السلوكية في شخصيته «الديانة، الورع...»، ثم إلى مؤهلات المهارة والقدرة على حسن الأداء، يقول الخطيب في هذا الصدد: «ينبغي أن يكون «الأستاذ» قوي الاستنباط جيد الملاحظة، رصين الفكر، صحيح الاعتبار، صاحب أناة وتؤدة.. مشفقاً على أهل ملته، مواظباً على مروءته، حريصاً على استطابة مأكله، فإن ذلك أول أسباب التوفيق...»[58].

والمتأمل في هذه المواصفات يجد أنها ذاتية تتعلق بشخص الأستاذ أو بأدبه في نفسه كما عبر ابن جماعة[59] وجماعها أن «يطهر باطنه وظاهره من الأخلاق الرديئة، ويعمره بالأخلاق المرضية.. وأن يتخلق بالزهد في الدنيا والتقلل منها بقدر الإمكان

---

55 الفقيه والمتفقه 2/83

56 الفقيه والمتفقه 2/96

57 تعليم المتعلم طريق التعلم ص:41

58 الفقيه والمتفقه 2/158

59 تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم ص:15

الذي لا يضر بنفسه وعياله...»[60].

ويتأسس على هذه المواصفات الذاتية، آداب أخرى تتعلق بعلاقة الأستاذ بالتلميذ، سنعرض لها بعد ذكر مواصفات وآداب المتعلم أو التلميذ.

2 - المتعلم أو التلميذ:

سبق أن ذكرنا أن التعلم عملية بنائية يسهم فيها المعلم و المتعلم معاً، ومن ثم، فلا يستقيم الكلام عن الأستاذ وما ينبغي أن يتصف به من سجايا و آداب من دون الحديث عن التلميذ وما يجب أن يلتزم به من آداب وخصال، إذ على قدر انضباطه والتزامه واتزانه الخلقي والسلوكي، تكون التربية مفيدة ومعطاء.

يقول الخطيب البغدادي في سياق حض الطالب على التمسك بسنن الرسول صلى الله عليه وسلم: (ينبغي لطالب الحديث «والعلم عامة» أن يتميز في عامة أموره عن طرائق القوم باستعمال آثار رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وتوظيف السنن على نفسه، فإن الله تعالى يقول:» لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة»[61] [62].

ويقول رحمه الله مبينا ما ينبغي للطالب أن يتجنبه ويترفع عنه من السفاسف: «يجب على طالب الحديث «والعلم عامة» أن يتجنب اللعب والعبث والتبذل في المجالس بالسخف والضحك والقهقهة وكثرة التنادر، وإدمان المزاح والإكثار منه، فإنما يستجاز من المزاح يسيره ونادره وطريفه الذي لا يخرج عن حد الأدب وطريقة العلم، فأما متصله وفاحشه وسخيفه وما أوغر منه الصدور وجلب الشر فإنه مذموم، وكثرة المزاح يضع من القدر ويزيل المروءة»[63].

وبكلمة جامعة، فإن على الطالب أو التلميذ أن يكون في مستوى طلب العلم إيمانياً وسلوكياً، فيلزم الوقار ويتجنب كل ما يخدش الفضيلة ويخدم المروءة «سخف، تبذل...»، ويتسنم معالي الأمور ليستحق أن يكون «أكمل الناس أدباً وأشد الخلق تواضعاً و أعظمهم نزاهة وتديناً و أقلهم طيشاً»[64].

وعلاوة على هذا، فإنه ينبغي للطالب أن يتفرغ للطلب في زمن شبابه و أن يحرص

---

60 تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم ص:23

61 سورة الأحزاب: الآية 21

62 الجامع لأخلاق الراوي و آداب السامع 1/142

63 المصدر نفسه 1/156

64 المصدر نفسه 1/78

على التخفف من كل الأثقال والأشغال الصارفة عن خلوصه للطلب وتفرغه له. يقول الخطيب-رحمه الله- في هذا السياق: «التفقه «الدراسة» في زمن الشبيبة و إقبال العمر، والتمكن منه بقلة الأشغال وكمال الذهن وراحة القريحة، يجعله يرسخ في القلب، ويثبت ويتمكن ويستحكم...»[65]. ولهذا «ينبغي للمتفقه «المتعلم» أن يقطع العلائق ويطرح الشواغل، فإنها موانع عن حفظ العلم، وقواطع عن درس الفقه»[66]. ورأس تلك الشواغل التهمم بطلب الرزق، لاسيما إذا كان الطالب ذا عيال. فما العمل إذن؟

يقول الخطيب رحمه الله: «إذا كان للطالب عيال لا كاسب لهم غيره، فيكره أن ينقطع عن معيشته ويشتغل بالحديث «والعلم عامة» عن الاحتراف لهم...»[67] ثم يضيف: «والمستحب لطالب الحديث «العلم» أن يكون عزباً ما أمكن ذلك•، لئلا يقتطعه الاشتغال بحقوق الزوجة والاهتمام بالمعيشة عن الطلب.. وإذا كان طالب الحديث «العلم» عزباً فآثر الطلب على الاحتراف، فإن الله يعوضه ويأتيه بالرزق من حيث لا يحتسب، و إن جعل من وقته جزءاً يسيراً للاحتراف كالتوريق وما أشبهه كان أفضل. ..»[68]. فلا تنال المطالب العالية إلا بالصبر وركوب الصعاب والمشاق، والأفضل بل الأولى أن يلتمس الطالب سبباً للرزق ليجمع بين هم طلب العلم وهم المعيشة. ولو ساءلنا تاريخ الأمة الإسلامية، لوجدنا أن هم الرزق لم يكن عائقاً مانعاً للطالب من طلب العلم في مجتمع مؤسس على التكافل والإحسان لأهل العلم، يقول الأستاذ عبد السلام ياسين في هذا الصدد: «إذا نظرنا إلى الأصيل من ترا ثنا ماذا نجد؟

نجد المسجد في عين دائرة التعليم ونجد التطوع والأوقاف والإحسان إلى طالب العلم وكفالته وكفايته مؤونة العيش ولوازم الطلب من كتب تزخر بها خزانات المسجد.. كان أحد شيوخنا رحمهم الله جميعاً وأحسن إليهم كما أحسنوا إلينا، يأخذ

---

65 الفقيه والمتفقه1/90

66 المصدر نفسه 1/92

67 الجامع لأخلاق الراوي و آداب السامع 1/99

• إيثار الخطيب العزوبة للطالب أمر فيه مقال، إذ تعارضه النصوص الشرعية الحاضّة للشباب على الإحصان، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج...»كما يعارضه منطق الواقع الراهن الذي يفرض على الشباب المسارعة للزواج عند الاستطاعة لئلا يتدنس بلوثات الفتنة الآسنة التي تترصده في كل مكان.

68 نفس المصدر 1/104

طالب العلم الوارد على المدينة إلى متجر من متاجر ذوي الدين والمروءة، فيعرفه به ويذكر له حاجته ويكله إلى بره. فيتبنى المحسن الطالب ليخلص جهوده للتعليم[69]، وهكذا عاش التعليم في كنف الإحسان وخدمات القطاع الخاص.

والآن وقد عرفنا أن طالب العلم مَكفيٌ في رزقه إما من كسب يده أو عن جود غيره، ننتقل إلى السؤال عن الأستاذ، من أين له أن يحقق الكفاية ويكتسب الزاد؟

يجيب الخطيب رحمه الله بقوله «..وعلى الإمام أن يفرض لمن نصب نفسه لتدريس الفقه والفتوى في الأحكام، ما يغنيه عن الاحتراف والتكسب، ويجعل ذلك من بيت مال المسلمين، فإن لم يكن هناك بيت مال أو لم يفرض الإمام للمفتي «ولمدرس» شيئاً واجتمع أهله على أن يجعلوا له من أموالهم رزقاً... ساغ ذلك»[70].

والمعول عليه أنه يجب أن يكون المدرس في غنى عن تكفف الناس، فالدولة تكفيه همّ ذلك، ولا يوكل أمر أداء أجره إلى الإنفاق الحر إلا في حالة تخليها أو عجزها عن القيام بوظيفتها المتمثلة في أداء الأجور.

ثانياً: العلاقات التربوية بين المعلم والمتعلم

أقصد بالعلاقات التربوية، مختلف الصلات والروابط التي تجمع بين مكونات الفعل التربوي «معلم + متعلم». وقد عبرت بالجمع «علاقات» إشارة إلى أنها شبكة علاقات تتحدد على أكثر من مستوى وتتخذ أكثر من بعد، فهي «أولاً علاقات إنسانية لأن تحققها يستدعي حضور تفاعل العنصر الإنساني مجسداً في المدرس والتلاميذ، وهي ثانياً علاقات تواصل بيداغوجي، لأن التعليم هو بالدرجة الأولى إقامة تواصل مع التلاميذ. وعلى مستوى ثالث علاقات سيكولوجية «نفسية» وسيكو سوسيولوجية «نفسية-اجتماعية»، لأن فعل التعليم يتم في غالبية الأحيان في إطار جماعة القسم،فهو ذو طبيعة جماعية، هذا بالإضافة إلى أن إنجازه يكون مرفوقاً بتبادلات وجدانية مختلفة[71]. وبالنظر إلى أدبيات الخطيب البغدادي التربوية، نجده يرصد العلاقات التربوية بين المعلم والمتعلم من خلال مستويات متعددة يمكن أن نختزلها في خانتين:

- مستوى البعد السلوكي.

---

69 حوار مع الفضلاء الديمقراطيين ص:140-139

70 الفقيه والمتفقه 2/164

71 المدرس والتلاميذ أية علاقة ص:15

• مستوى البعد التواصلي

1 - مستوى البعد السلوكي:

إن الحديث عن البعد السلوكي في العلاقة بين المعلم والمتعلم يعني بالضرورة كشف النقاب عن سلوك كل منها تجاه الآخر.

أ - علاقة المعلم بالمتعلم:

إنها «علاقة مقدسة تستمد قدسيتها من الدين والإيمان. فأول معلم للإنسان هو الله، والمعلم الثاني بعد الله هو الرسول صلى الله عليه وسلم»[72]، فتكون بذلك مهمة التعليم مهمة شريفة، وينبغي لمن اشتغل بها أن يحفظ آدابها[73]، ويؤسس معاملته للمتعلمين على قيم الرفق والعدل بينهم والتواضع والحلم وحسن الاحتمال لهم.

• الرفق بالمتعلمين:

ينبغي أن «يجري المتعلمين مجرى بنيه»[74]، يحنو عليهم دائماً، ولا يقسو عليهم إلا عند الضرورة، وحتى لا تكون الشدة مدعاة للفشل بل ذريعة للتسيب الأخلاقي، يقول ابن خلدون في هذا الصدد «ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين.. سطا به القهر وضيق عن النفس في انبساطها وذهب بنشاطها، ودعاه إلى الفساد، وحمله على الكذب والخبث.. وعلمه المكر والخديعة...»[75] فالقهر إذن لا يقوم سلوك المتعلم بقدر ما يزيده اعوجاجاً، لذا يلح الخطيب على أن تتسم معاملة المعلم للمتعلم بالرفق من دون الإغلاظ والخرق، بحيث تغدو الشدة استثناء لا يلجأ إيه إلا عند الضرورة، إذ «يجوز له «أي المعلم» الإنكار على من ترك الوقار بحضرته»[76].

• العدل بين المتعلمين:

يمثل التلاميذ مجتمعاً مصغراً يحمل بالقوة كل ملامح المجتمع الكبير من حيث

---

72 رسالة الأستاذ تربية وتعليما وتغييرا ص:22

73 إحياء علوم الدين ص:1/69

74 إحياء علوم الدين ص:1/69

75 مقدمة ابن خلدون 597

76 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 1/406

تركيبته، ففيهم الذكر والأنثى والفقير والغني والشريف والوضيع.. لذا ينبغي أن تنضبط سياسة المعلم وقيادته لهم بضوابط العدل بينهم وعدم الميل والتحيز. «فلا يجامل أحداً لمكانته أو يحتقر أحداً لوضاعته، ولا يشهد لأحد بما ليس فيه لأن ذلك يفقد الثقة منه ويحط من مكانته»[77].وقد اعتبر القابسي العدل في التعليم حقا مشروعا للمتعلمين على معلمهم حيث قال «ومن حقهم عليه أن يعدل بينهم في التعليم ولا يفضل بعضهم على بعض»[78].

أما الخطيب البغدادي فقد ترك للمعلم أو المدرس هامشاً من الحرية في التعامل، حين أباح له أن «يؤثر حفاظ الطلبة و أهل المعرفة والفهم.. و إن كان الأفضل أن يعدل بينهم ولا يؤثر بعضهم على بعض»[79].

وملاك الأمر، أن العدل بين المتعلمين ينبغي أن يكون هو الأصل الضابط لمعاملته لهم، أما تقديم وتفضيل بعضهم على بعض، فليس إلا وجها من وجوه التشجيع و إذكاء روح المنافسة بينهم.

- **خدمة المتعلمين والانبساط لهم:**

يقول الخطيب: «وينبغي للفقيه «الأستاذ» أن يتألف المتفقهة / التلاميذ بالمعونة لهم على حسب إمكانه والانبساط إليهم والتخلق معهم...وخدمة الفقيه «الأستاذ» أصحابه مما يصفي منهم المودة ويلقي في قلوبهم المحبة...والمستحب أن يخاطب من خاطب منهم بكنيته من دون اسمه...إكراماً لهم»[80].

ولا مراء في أن إرساء العلاقة التربوية بين الأستاذ والتلاميذ على مكين أمثل قواعد التعامل الإنساني وأرقاها، من قبيل التواضع وخفض الجناح والخدمة الحانية، ضمانة لحسن سير العمل التربوي والتعليمي، وما أحسن أن يستعيض الأستاذ ويستغني بتلك القيم النبيلة عن ركوب متن الكبر والطمع...

ب - علاقة المتعلم بالمعلم:

إنها علاقة احترام وهيبة وتوفير وتبجيل، وعرفان بالفضل لأهله، إذ «يجب على

---

77 رسالة الأستاذ تربية وتعليما وتغييرا ص:23

78 الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين و أحكام المعلمين والمتعلمين 2/25

79 الجامع لأخلاق الراوي و آداب السامع 1/305

80 الفقيه والمتفقه 2/ص:118-117

المتعلم الاعتراف بفضل الفقيه/الأستاذ، والإقرار بأن العلم من جهته اكتسبه وعنه أخذه...»[81]، فإذا خاطبه «عظمه في خطابه بنسبته إياه إلى العلم مثل أن يقول له: أيها الحافظ، أيها العالم ونحو ذلك...وإذا قال الطالب للمحدث «الأستاذ» في خطابه له: يا سيدي كان جائزاً...»[82]، فالمهم جدا أن يظهر له التواضع الجم، ويشعره بسلوكه أنه مدين له بالفضل، فيتجنب كل ما يغيظه، ويتحرى الالتزام بالأدب التام في معاملته، «فلا يمشي أمامه ولا يجلس مكانه، ولا يبتدئ الكلام عنده إلا بإذنه...»[83]، ولا يدخل عليه بغير استئذان، «وإذا وجده نائماً فلا ينبغي له أن يستأذن عليه، بل يجلس وينتظر استيقاظه أو ينصرف إن شاء، و إن كان باب دار المحدث «الأستاذ» مفتوحاً، فينبغي للطالب أن يقف قريباً منه ويستأذن...»[84] فالحاصل أنه يطلب رضاه ويتجنب سخطه ويمتثل أمره في غير معصية الله تعالى[85]، فهذه أنماط من السلوك الملتزم الذي ينم عن التوقير وعمق الاحترام. إنها أنماط سلوك صادر عن عاطفة البنوة والتلمذة التي ينبغي أن تغمر المتعلم في معاملته لمعلمه، «فإن من علمك حرفاً مما تحتاج إليه.. فهو أبوك»[86] على حد تعبير الإمام الزرنوجي.

2. مستوى البعد التواصلي

أقصد بالبعد التواصلي للعلاقة التربوية، تلك العلاقة التي ينشؤها الأستاذ مع التلاميذ أثناء تدريسهم، فمجالها ينحصر في قاعة التدريس، ولا يتعداه إلى خارجه بخلاف العلاقة السلوكية التي تمتد إلى أوسع مجال، لتشمل القسم وخارجه «البيت، الشارع...» ونظراً لكون أركان التواصل لا تخرج عن ثلاثة:

- المرسل «المخاطب»
- المرسل إليه «المخاطب»
- الرسالة «الخطاب»

---

81 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 2/134

82 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 1/181

83 تعليم المتعلم طريق التعلم ص:47

84 الجامع لأخلاق الراوي و أدأب السامع 1/159 - 160

85 تعليم المتعلم طريق التعلم ص:47

86 تعليم المتعلم طريق التعلم ص:47

فإننا سنحاول أن نقارب البعد التواصلي للعلاقة بين المعلم والمتعلم، من خلال ما سيَّج به الخطيب البغدادي أركان التواصل من شروط وضوابط قمينة بإنجاح العملية التواصلية.

شروط في المرسل «الأستاذ»:

لا يتم التواصل لتربوي إلا إذا توافرت الظروف الملائمة ومنها:

أ - **وجود مكان مخصص للتدريس**، يجلس فيه الراوي «الأستاذ»، والسامع «التلميذ» معاً، ويستوطنا، فيكون ذلك أحضر للقلب و أجمع للفهم...»[87].

ب - استعداد الأستاذ:

فلا يحقق التواصل مبتغاه إلا إذا كان الأستاذ على أتم استعداد ليزاول مهمته التعليمية، وبذلك يشترط عليه الخطيب «أن يتفقد حاله قبل خروجه «للتدريس»، فإن كان جائعاً أصاب من الطعام ما يسكن عنه فورة الجوع.. و إن كان ناعساً لأمر أسهره أخر تدريسه في تلك الحال، وأخذ حظه من نومه...ولا يخرج إلا طيب النفس فارغ القلب من كل ما يشغل السر...»[88].

ج - إقبال الأستاذ على الحاضرين بوجهه:

فمن شروط نجاح عملية التواصل والتبليغ، أن يرى المخاطَب المخاطِب، فإن رؤية قسمات الوجه أدعى للتأثير وحسن المتابعة، ولذلك أكد الخطيب على ضرورة أن يقبل الأستاذ بوجهه على جماعة التلاميذ،» وأن يجلس على منبر أو غيره حتى يبدو لهم وجهه ويبلغهم صوته»[89]. ولا ريب أن المنصة التي تزود بها كافة الفصول في المدارس الحديثة تفي بهذا الغرض.

د- صدق المقال والقصد في الكلام:

- عن عائشة رضي الله عنها قالت إن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» كان يحدث

---

87 الجامع لأخلاق الراوي و أداب السامع1/407

88 الفقيه والمتفقه 2/120 - 121

89 الجامع لأخلاق الراوي و أداب السامع 1/413

حديثاً لو عده العاد لأحصاه[90].

فتأسيا بالنبي «صلى الله عليه وسلم» وهو الوالد المعلم، ينبغي أن يكون كلام الأستاذ وحديثه قصداً، لا هو بالطويل الممل ولا هو بالقصير المخل، كما ينبغي أن يكون كلامه فصلاً يفهمه من يسمعه. يقول الخطيب البغدادي في هذا السياق: «ينبغي للمحدث أن لا يطيل المجلس الذي يرويه «الدرس»، بل يجعله متوسطاً ويقتصد فيه حذراً من سآمة السامع وملله. وأن يؤدي ذلك إلى فتوره عن الطلب وكسله...»[91] وقد ذكر السمعاني هذا المعنى بتمامه وكمله حيث قال «ينبغي للمُملي ألا يطيل المجلس الذي يرويه، بل يجعله متوسطاً حذراً من سآمة السامع وأن يؤدي ذلك الى فتوره عن الطلب وكسله»[92].

فالمعلومات حين تتكدس وتتكاثف في الدرس الواحد أو المجلس الواحد، لا يعقل منها المتلقي إلا الشيء اليسير، لذا يجب على الأستاذ أن يحتاط من تكثيف المعلومات بالشكل الذي يحرم التلميذ من حسن الاستفادة.

هـ- حسن البلاغ:

• سلامة اللغة:

من باب حسن البلاغ أن يتقن الأستاذ أصول الخطابة، فيتكلم بلغة سليمة واضحة، «ويتجنب التقعير في الكلام والوحشي من الألفاظ فإنه مناف للبلاغة بعيداً من الحلاوة. ..[93] وليعود لسانه من الكلام أحسنه، ومن الخطاب ألينه...»[94].

يقول الشيخ عبد الله علوان بهذا الصدد: «من أبرز صفات الداعية «الأستاذ» المتكلم، طلاقة اللسان وسلامة البيان، وبلاغة الكلام.. وهذا لا يتأتى إلا أن يكون ذا ثقافة واسعة شاملة، وأن يعالج عيوب الصوت بالممارسة والمران، وأن يتجنب الحروف التي تسبب له الثغة أو الفأفأة... وأن يكثر من المطالعات الأدبية.. لتتربى فيه ملكة التعبير، وتنمو فيه طلاقة اللسان، وتتأصل في ارتجاله ومواقفه فصاحة

---

90 صحيح البخاري- كتاب المناقب-باب 24 -الحديث 58 -

91 الفقيه والمتفقه 2/28

92 أدب الإملاء والاستملاء – للسمعاني- تحقيق سعيد محمد اللحام-ط 1/دار الهلال –بيروت- 1989/1409هـ-ص 81

93 الفقيه والمتفقه 2/34

94 الفقيه والمتفقه 2/36

البيان...»[95].

وبكلمة أخرى، فإن التعليم ممارسة ودربة، وموقع الأستاذ بوصفه مبلغاً لرسالة شريفة يفرض عليه أن يعتني بتطوير ملكة التعبير وحسن الخطاب، وذلك حتى يتسنى له «الإصلاح من منطقة، وتجنب اللحن في كلامه...»[96]، وإلا فإن إخلاله بهذا الأمر يعرضه لسخرية واستهزاء مخاطبيه «التلاميذ».

• **الاقتصاد في صفة الكلام:**

إن إيصال الخطاب للسامعين يفرض على الأستاذ أن يجتهد في رفع صوته بالقدر الذي يسمع الآخرين ولا يجهد نفسه. يقول الخطيب رحمه الله: «...ولا يرفع «الأستاذ» صوته في كلامه، فيشق حلقه ويحمي صدره ويقطعه، وذلك من دواعي الغضب،... ولا يخفي صوته إخفاء لا يسمعه الحاضرون، فلا يفيد شيئاً، بل يكون مقتصداً بين ذلك»[97]. فالواجب عليه – إذن–أن ينطق قصداً لا غلو فيه ولا تقصير. يقول الشيخ عبد الله علوان «رحمه الله» بهذا الصدد: «عليه أن يتحاشى الغلو في رفع الصوت إلى درجة تصم الآذن، أو الهمس إلى درجة تجهد السامعين، أو السرعة إلى درجة تتطاير معها الحروف وتتآكل الكلمات، أو البطء إلى درجة تستدعي التثاؤب والنعاس.. كما عليه أن يتجنب العبث بلحيته أو بلع ريقه أو فتل أصابعه، أو الإكثار من السعال بغير مبرر... فكل ذلك مما يخل بشخصيته ويضعف مهابته، ويجعله محل نقد ومثار سخرية.[98]

• **التؤدة والسكينة:**

إن اضطراب الأستاذ وغياب ملامح السكينة والاطمئنان عنه، مدعاة لعدم اكتراث التلاميذ به، وعدم إنصاتهم له. لدى ينبغي أن يحرص بكل ما أوتي من قوة على ضبط نفسه واتزان حركاته. يقول الخطيب: «قيل للشافعي: من أقدر الناس على المناظرة؟ فقال: من عود لسانه الركض في ميدان الألفاظ، ولا يتلعثم إذ رمقته

---

95 مواقف الداعية التعبيرية ص:48

96 الفقيه والمتفقه 2/28

97 الفقيه والمتفقه2/228

98 مواقف الداعية التعبيرية ص:38-37

العيون بالإلحاظ، ولا يكون رخي البال قصير الهمة...[99]، والأستاذ في قسمه وإزاء تلاميذه، أشبه ما يكون بمن يناظر نخبة من النظار، فعلى قدر رسوخ قدمه وثبات نفسه، وسداد حجته وكلامه، تكون الآذان له صاغية، يقول الشيخ عبد الله علوان في هذا السياق «ومن ملامح الاتزان في الداعية «الأستاذ» أيضاً تجنبه المبالغة في الحركات والإشارات والمواقف التمثيلية المتكلفة... وتجنبه ما يدعو إلى اضطراب الأعصاب والضعف والخور والتهيب...حتى لا يقع في العي والتلعثم والشرود وحصر المعاني والكلمات والتحول عن مقتضى الحال»[100].

وصفوة القول، إن الأستاذ حين يخاطب تلاميذه، يكون في موقع مواجهة ومناظرة، فليحذر أن يصدر منه قول أو فعل، يفقده التأثير والتحكم في المخاطبين، وليلتزم التؤدة والرزانة في الحركات.

- **السمت الحسن:**

إن أشكال التواصل لا تقتصر على مجرد اللغة والكلام، بل إن ثمة أشكالاً أخرى للتواصل غير لفظية كالإشارات والهيأة...فحسن المظهر والسمت يجذب المتلقي ويثير فيه همة الاستماع والتلقي، وأما وحشة الخلقة ورذالة المظهر، فإنهما بلا مواربة عائقان يقلصان إمكانية التأثير والتأثر، ويعيقان حسن التواصل. يقول الشيخ عبد الله علوان رحمه الله: «ومن عوامل النقد في الداعية «الأستاذ» أن يظهر أمام الناس بملابس رثة وأزياء ممزقة أو ثياب ضيقة ومجسدة... وإذا كان الله سبحانه يوصي المسلمين بالتزين عند كل مسجد فيقول سبحانه «خذوا زينتكم عند كل مسجد...»[101] «فالداعية «الأستاذ» هو أولى من غيره بالتحلي بالزينة عند كل خطبة أو درس أو محاضرة.. فيكون نظيف الثياب في غير تبرج، طيب الرائحة في غير إسراف، مهيب النظر في غير تكلف، مهذب الرأس واللحية في غير تصنع، تظهر عليه أمارات الكمال وعلامات الجلال...»[102].

وبكلمة أخرى، فإن على الأستاذ أن يبتعد عن كل ما يثير الازدراء والسخرية منه، أو يبعث على الكبر والعجب، ويتحرى القصد وحسن السمت. يقول الخطيب رحمه الله:

---

99 الفقيه والمتفقه 2/29

100 مواقف الداعية التعبيرية ص:38-37

101 سورة الأعراف: الآية 31

102 مواقف الداعية التعبيرية ص 40

«ينبغي للمحدث «الأستاذ» أن يكون في حال روايته-حال الدرس-على أكمل هيأته و أفضل زينته، ويتعاهد نفسه قبل ذلك بإصلاح أموره التي تجمله عند الحاضرين من الموافقين والمخالفين...»[103] «وليبتدئ بالسواك، وليقص أظافره إذا طالت، ويأخذ من شاربه، ويسكن شعث رأسه، وإذا اتسخ ثوبه غسله، وإذا أكل طعاماً زهماً أنقى يديه من غمره. ويتجنب ما كره ريحه كالثوم...»[104] «ويستحب له لبس من الثياب الأبيض. ..ويكره أن يلبس الثوب الخلق وهو يقدر على الجديد...وكما يكره له لبس أدون الثياب، كذلك يكره له لبس أرفعها خوفاً من الإشهار بها، و أن تسمو إليه الأبصار»[105].

شروط في المرسل إليه:

أ - الاستعداد والقابلية:

إن أهم ما يشترط في المرسل إليه/التلميذ، هو القابلية والاستعداد. فلا تواصل ولا تجاوب مع من لا استعداد له، ولهذا اشترط الخطيب على التلميذ» ألا يسأل الفقيه «الأستاذ» أن يذكر له شيالاً، إلا ومعه سلامة الطبع وفراغ القلب وكمال الفهم، لأنه إذا حضره ناعساً أو مغموماً أو مشغول القلب، أو قد بطر فرحاً، أو امتلأ غضباً، لم يقبل قلبه ما سمع و إن ردد عليه الشيء وكرره، فإن فهم لم يثبت في قلبه ما فهمه حتى ينساه، وإن استعجم قلبه عن الفهم، كان ذلك داعية الفقيه «الأستاذ» إلى الضجر والمتعلم إلى الملل...»[106]،فلا تتصور إمكانية الفهم والاستيعاب في غياب صفاء أجهزة الاستقبال«عقل الطالب أو قلبه»، وما لم تتلخص هذه الأجهزة من الكدورات العارضة «هم، غم، غضب، فرح...»، فإن التواصل معدوم لا محالة.

ب - حسن الاستماع والإصغاء:

يقول الخطيب في باب أدب السماع: «أول ما يلزم الطالب عند السماع أن ينصت ويصغي إلى ما يرويه المحدث/الأستاذ،...وإن عرض للطالب أمر احتاج أن يذكره في مجلس الحديث/الدرس، وجب أن يخفض صوته لئلا يفسد السماع عليه أو على

---

103 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 1/373

104 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 1/374 - 374

105 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 1/381 - 382

106 الفقيه والمتفقه 101/2

غيره.. وإن لم يبلغه صوت الراوي لبعده عنه، سأله أن يرفع صوته سؤالاً لطيفاً لا سمجاً ولا عنيفاً، وليتق إعادة الاستفهام لما قد فهمه وسؤال التكرار لما قد سمعه وعلمه، فإن ذلك يؤدي إلى إضجار الشيوخ/الأساتذة.. وينبغي أن يكون مقعد الطالب من المحدث/ الاستاذ بمنزلة الصبي من المعلم، ويجب أن يقبل على المحدث بوجهه، ولا يلتفت عنه ولا يسار أحدا في مجلسه... وليحذر أن يعترض على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عند سماعه من المحدث/الاستاذ برأيه، فإن ذلك محضور عليه، وكذلك يجب أن لا يعترض عليه بعموم القرآن لجواز أن يكون ذلك مما خص به كتاب الله عز وجل... وإذا روى المحدث/الأستاذ خبرا تقدمت معرفته، فينبغي أن لا يداخله في روايته ليريه أنه يعرف ذلك الحديث. فإنه من فعل مثل هذا كان منسوباً إلى سوء الأدب»[107].

وملاك الأمر، أن على الطالب أن يلتزم قواعد السلوك المهذب، فيحرص على دوام الانتباه وعدم التشويش على غيره، ولا يتظاهر أمام أستاذه بالعلم والمعرفة، وإن فاته أن يسجل أو يفهم شيئاً مما ذكر، طلب من الأستاذ إعادة الكلام في تأدب واحترام.

جـ - أدب الحوار بين الأستاذ والتلاميذ:

إن علاقة التواصل بين الأستاذ وتلاميذه، تفترض قيام حوار بينهم. والحوار إن تجاوز حداً معيناً أصبح لغواً، لذا كان لزاماً علينا أن نسائل الخطيب من خلال ما كتبه، عن طبيعة الحوار المرغوب فيه وعن شروطه وحدوده؟ إن أداة الحوار ووسيلته هي السؤال، وأما كيفيته فهو بمثابة خيط رابط بين طرفين أحدهما يصدر كلام البدء «السؤال» وأما كيفيته فهو بمثابة خيط رابط بين طرفين أحدهما يصدر كلام البدء «السؤال» والآخر يصدر كلام الرد «الجواب». وقد تناول الخطيب مهارة السؤال من زاويتين:

- أدب السؤال.
- أنواع الأسئلة.

1 - أدب السؤال:

حدد الخطيب رحمه الله-بهذا الصدد- جملة من الآداب والضوابط التي ينبغي أن يلتزم بها التلميذ عند طرح الأسئلة على أستاذه، تعرض لها كما يلي:

107 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 194/199

أ - مراعاة الظروف الملائمة للسؤال «الزمن والمكان»:

يقول الخطيب: «وليجتنب الطالب سؤال المحدث «الأستاذ»وهو قائم ولا وهو يمشي. لأن لكل مقام مقال، وللحديث مواضع من دون الطرقات والأماكن الدنية...»[108]، ومراعاة حيثيات طرح السؤال تدخل في إطار شروط التواصل التربوي بين الأستاذ وتلاميذه، والذي ينبغي أن يتم في ظروف تليق بشرف التعليم والعلم.

ب - تعيين المسؤول عنه:

وذلك لأن حسن المسألة نصف العلم كما قال ميمون بن مهران، فعلى الطالب أن يتحرى الدقة في طرح السؤال. وقد ضرب الخطيب مثالاً حياً في هذا الصدد حيث قال: «يجب أن يذكر السائل للمحدث «الأستاذ»طرق الحديث الذي يريد أن يحدثه به. فإن كان للحديث طرق متعددة، نص السائل على أحسنها، وعين ما يستفيد سماعه منها»[109].

جـ - طرح الأسئلة الهادفة:

صوناً للطالب من العبث، ينبغي أن لا يطرح إلا الأسئلة الهادفة، ولذا قال الخطيب «وينبغي أن تكون مساءلته عما يكثر نصفه، ويقل المساءلة عن العضل والأغلوطات»[110].

د - التمهل والتؤدة في طرح الأسئلة:

قال الخطيب: «قال حكيم من الحكماء لأبنه: يا بني تعلم حسن الاستماع كما تعلم الكلام، فإن حسن الاستماع إمهالك المتكلم حتى يفضي إليك بحديثه...»[111].

إن من أدب الحوار وأصول التحدث عدم مقاطعة المتكلم قبل أن ينهي كلامه، فلو «عرض للطالب شيء.. وأراد السؤال عنه»، فعليه «أن لا يسأل عنه في تلك الحال، بل يصبر حتى ينهي الراوي /الأستاذ حديثه ثم يسأل عما عرض له...»[112]، ويكون

---

108 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 1/231

109 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 1/212

110 الفقيه والمتفقه ص143

111 الفقيه والمتفقه ص: 33-32/2

112 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع211-1

نطقه بعلم وإنصاته بحلم. ولا يعجل إلى الجواب ولا يهجم بسؤال، ويحفظ لسانه من إطلاقة بما لا يعلم، ومن مناظرته فيما لا يفهم، فإنه ربما أخرجه ذلك إلى الخجل والانقطاع، فكان فيه نقصه وسقوط منزلته، عند من كان ينظر إليه بعين العلم والفضل»[113].

وصفوة القول: إن التمهل في طرح السؤال، يقلص هامش الخطأ المتوقع حصوله ممن ديدنه الاستعجال قبل تمام الفهم والاستيعاب.. كما يساعد على توفير نقاء الجو للحوار، إذ إن مقاطعة المتحاورين بعضهم بعضاً، يعكر صفو ذلك النقاء.

هـ - طرح الحياء عند السؤال:

من أهم أهداف التربية زرع الثقة في نفس المتعلم، والدفع به لكسر طوق الخجل والتردد الذي يحول من دون الاستفادة. ولذلك وجب أن يتعود التلميذ على الجرأة في طرح الأسئلة ولا ينبغي أن يمنعه الحياء من السؤال... فإن غلب عليه الحياء، واحتشم من سؤال الفقيه «الأستاذ» ألقى مساءلته إلى من يأنس به وينبسط إليه ليسأل الفقيه/الأستاذ عنها...وإن كان الأولى أن يكون هو السائل للفقيه «الأستاذ»...»[114].

و - عدم إثارة غضب الأستاذ بكثرة السؤال:

ينبغي للطالب أن يتجنب إضجار الأستاذ، وذلك بعدم الإكثار من الأسئلة العشوائية غير الهادفة، فكل سؤال يمكن الاستغناء عنه، ينبغي العدول عنه،» وإذا أجاب المحدث «الأستاذ»الطالب إلى مساءلته وحدثه، فيجب أن يأخذ منه العفو ولا يضجره... والإضجار يغير الإفهام، ويفسد الأخلاق، وتحيل الطباع»[115].

2 - أنواع الأسئلة:

إن الأسئلة وإن تعددت صياغتها ومبتغياتها، فإنها تتوخى إما: طلب بيان أمر مجهول لدى السائل، وإما الاعتراض الناشئ عن عدم اقتناع السائل بجواب صادر عن المسؤول. فهي بعبارة أخرى، إما أسئلة ابتدائية، وإما أسئلة اعتراضية مؤسسة

113 الفقيه والمتفقه2 ص31

114 الفقيه والمتفقه 2/143

115 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 1/214

على ما سبقها.

وقد بين الخطيب رحمه الله أنواع الأسئلة استناداً إلى نوعية الأهداف المتوخاة من طرحها، حيث قال: «السؤال على أربعة أضرب يقابل كل ضرب منها ضرب من الجواب من جهة المسؤول. فأولها السؤال عن المذهب «بمعنى الرأي أو الموقف» بأن يقول السائل: ما تقول في كذا ؟ فيقابله جواب من جهة المسؤول فيقول كذا. والثاني: السؤال عن الدليل بأن يقول السائل: «ما دليلك عليه؟ فيقول المسؤول: كذا. والثالث: السؤال عن وجه الدليل فيبينه المسؤول. والرابع: السؤال على سبيل الاعتراض عليه والطعن فيه، فيجيب المسؤول عنه، ويبين بطلان اعتراضه، وصحة وجه دليله»[116].

ويقسم الخطيب الأسئلة تقسيماً آخر بحسب طبيعتها إلى: سؤال تفويض، وسؤال حجة حيث قال: «يجوز للسائل أن يسأل غيره فيقول: ما تقول في كذا؟ ويفوض الجواب إليه، و إن كان عالماً بجوابه. قال تعالى مخبرا عن إبراهيم عليه السلام: إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون؟ قالوا: نعبد أصناماً»[117] وذلك معلوم له من جوابهم. وهذا ما يسمى بسؤال التفويض.

ولو سأل سؤال حجة فقال: «لم عبدتم الأصنام؟ أو لم قلتم إنها تعبد ؟،لعلمه بقولهم إنه كذلك، جاز»[118].

وبالنظر إلى المثال الوارد بشأن سؤال التفويض نستخلص أن طبيعة السؤال هناك إنكارية، إذ إن السائل يعلم مسبقاً الجواب، ولكنه فوضه إلى المسؤول مستنكراً أو على سبيل الإنكار «ماذا تعبدون؟ قالوا نعبد أصناماً!».

أما سؤال الحجة فهو سؤال مبني على طلب الدليل أو المبرر «لم تعبدون؟».

---

116 الفقيه والمتفقه 2/40

117 سورة الشعراء الأية:70

118 الفقيه والمتفقه 2/51

المبحث الثالث:

التدريس: وقته، مواده وآدابه

أولاً : في التوقيت

جاءت إشارات الخطيب في تضاعيف كتبه إلى وقت مجالس العلم/الدروس، منسجمة مع العقيدة الإسلامية منبثقة منها، إذ أكد على وجوب «البكور إلى مجالس الحديث/العلم، مستدلاً بآثار وأحاديث نبوية شريفة منها قوله «صلى الله عليه وسلم» «اللهم بارك لأمتي في بكورها»[119]. ومنها أن نافعاً سأل ابن عمر عن هذا الحديث «اللهم بارك لأمتي في بكورها»، فقال: في طلب العلم والصف الأول»[120].

يقول الخطيب: «فينبغي لمن أراد سماع الإملاء «الدرس» البكور، خوفاً من فوات المجلس بتأخير الحضور...»[121]، فالدراسة ينبغي أن تنطلق منذ الساعات الأولى للنهار، إذ في ذلك تمييز للتوقيت الإسلامي عن غير الوضعي أو الغربي، علاوة على أنه يعين على تحقيق الكثير من الفوائد والمكاسب الدنية والدنيوية، والتي أشار الأستاذ منير شقيق إلى جوانب منها حيث قال: «أثبتت التجربة التاريخية لأمتنا، أهمية هذا الطراز من تنظيم الوقت الذي وضعه الإسلام، بسبب توافقه مع العقيدة «بدء النهار بالصلاة والعبادة»، وملاءمته للظروف المناخية والبيئية في بلادنا، وفائدته لمستوى الإنتاجية عمقاً وعرضاً سواء كان ذلك في الأعمال التي تتطلب جهداً عضلياً أم تلك التي تتطلب جهداً فكرياً.. إن إعادة تنظيم الوقت الرسمي على هدى الإسلام يشكل جزءاً من شروط النهضة الشاملة في كل المجالات، فمن فوائده بعد تمشية مع العقيدة وملاءمته الظروف والطبيعة والبيئة، وبعد فائدته للاقتصاد والعمل، أنه يوحد الأمة في التوقيت بدل الانقسام الراهن بين التوقيت الرسمي الذي يتبعه أهل الدوائر الحكومية والمدنية والمؤسسات والأسواق المحدثة على الطراز الغربي، وتوقيت البلاد الأصلي–التوقيت الإسلامي– الذي ما زالت تنهجه غالبية الشعب من أهل البوادي والحواضر من ريف و أحياء شعبية في المدن...»[122]. بكلمة أخرى، فإن تعديل التوقيت وفق الرؤية الإسلامية الصرفة، يحقق جانبا من تحقيق الذات أو إعادة بناء الذات المنهارة للأمة، ولعل أهم ما ينبغي أن يطاله التغيير والتعديل وفق المقاس الإسلامي، مسالة العطل، التي يجب أن يراعى في وضعها وتنظيمها الخصوصيات الذاتية للأمة، بالتركيز عل إعطاء الأهمية للأعياد والمناسبات الدينية «كذكرى

---

119 أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد باب في الابتكار في السفر.

120 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 1/150

121 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 1/135

122 ردود على أطروحات علمانية ص:66-64

الهجرة والأعياد «الفطر + الأضحى»، ولو نظرنا إلى الأدبيات التربوية الإسلامية في هذا الصدد، لوجدنا أنها نظرت للعطل نظرة توجهها الاعتبارات العقدية، فنقرأ عند القابسي مثلا قول «وأما بطالة «عطلة» الصبيان يوم الجمعة فقال سحنون: يأذن لهم في يوم الجمعة، وذلك سنة المعلمين منذ كانوا، لم يعب ذلك عليهم...»، وقال ابن سحنون لأبيه: كم ترى أن يأذن لهم في الأعياد؟ فقال: الفطر يوما واحداً، ولا بأس أن يأذن لهم ثلاثة أيام، و الأضحى ثلاثة أيام، ولأبأس أن يأذن لهم خمسة أيام.[123]

«فالأعياد إذن لم تغمط حقها، وعطلة الأسبوع تتحدد في الجمعة على اعتبار أن الأسبوع يبدأ بالسبت وينتهي بالخميس». قال الخطيب: «وبعضهم «أي الأساتذة» كان يجعل في كل أسبوع يوما للإملاء خاصة، وبقية الأيام للقراءة...»[124]، فتقسيم الوقت على مواد البرنامج الدراسي يرجع على اختيار الأستاذ، الذي يلزمه أيضا تحديد أوقات المجالس أو الدروس، يقول الخطيب في هذا المعنى: «ينبغي للمحدث/ الأستاذ أن يعين لأصحابه يوم المجلس لئلا ينقطعوا عن أشغالهم، ويستعدوا لإتيانه، ويعد بعضهم بعضا.. وإن عين لهم اليوم ووعدهم بالإملاء فيه «مثلا»، فلا ينبغي له إخلاف وعده إلا أن يقتطعه عن ذلك أمر يقوم عذره به»[125].

وبكلمة جامعة، فإن على الأستاذ أن يحسن تنظيم وقت الدراسة ويخبر التلاميذ بأوقات عقد المجالس وإلقاء الدروس، ليستعدوا لذلك ولعل ما تعرفه المدارس اليوم من وضع استعمالات الزمن إجراء مفيد يعفي الأستاذ من كلفة ضرب المواعيد بين الحين والحين.

ثانياً: في مواد التدريس:

تنطلق صياغة البرامج والمناهج التعليمية من خدمة أهداف التعليم وغاياته: «وللتعليم هدفان أساسيان في أي ملة وقوم: أولهما المؤسس للآخر، هو غرس الولاء المبكر في النفوس، إما الولاء لحضارة أو تقاليد أسرية قومية، وإما الولاء لدين... الهدف الثاني المؤسس على الأول هو اكتساب الناشئة المهارات العقلية العملية المطلوبة اجتماعياً واقتصادياً.. الهدف الأول تربوي نفسي.. والهدف الثاني تعليمي

---

123 الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين ص:2/28

124 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 2/55

125 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 2/56

تدريبي...»[126]. فإلى أي حد مثلت مواد التدريس التي حددها الخطيب البغدادي خدمة لأهداف التعليم المؤطرة تأطيراً عقدياً إسلامياً صرفاً؟

يجد الناظر المتفحص لما كتبه الخطيب رحمه الله، تحديداً وترتيباً للمواد التي ينبغي العناية بتدريسها. ورأس هذه المواد:

1 - تدريس القرآن الكريم:

يقول الخطيب في باب ذكر ما يجب تقديم حفظه على الحديث: «ينبغي للطالب أن يبدأ بحفظ كتاب الله عز وجل، إذ كان أجل العلوم و أولاها بالسبق والتقديم»[127]، فكل برامج التعليم ومناهجه ينبغي أن تكون خادمة له مستندة إليه: إلا أن البدء بتعليمه قبل غيره، أمر فيه للمفكرين المسلمين مقال. فنجد ابن خلدون مثلاً يعيب على أهل إفريقية والمغرب بدأهم بتدريس وتحفيظ القرآن الكريم قبل غيره، حيث قال: «فأفادهم «أي أهل المغرب» الاقتصار على القرآن القصور عن ملكة اللسان جملة، وذلك أن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة لما أن البشر مصروفون عن الإتيان بمثله، فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه والاحتذاء به... وليس لهم ملكة في غير أساليبه، فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللسان العربي وحظه الجمود في العبارات وقلة التصرف في الكلام.. وأما أهل الأندلس، فأفادهم التفنن في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسة العربية من أول العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي...» ثم يضيف «وقدم ابن العربي العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الأندلس»[128]. وملاك الأمر، أن ابن خلدون وابن العربي وغيرهما من أهل الغرب الإسلامي يرون أن تعليم القرآن وتحفيظه قبل إتقان اللغة العربية التي تمثل وعاء ورحماً له، يعتبر قصوراً منهجياً،فما يعني ترديد المتعلم سوراً لا يفقه مغزاها ولا معناها ولا محلها من الإعـراب!!، علاوة على أن هذا الإجراء التعليمي لا يكسب المتعلم فصاحة العرب بقدر ما يعود لسانه الرطانة والعجمة لعدم درايته بقواعد اللغة ومذاهب العرب في كلامهم. لعل هذه الاعتبارات لم تدخل في حساب الخطيب رحمه الله، إذ المهم عنده أن يحفظ الطالب الكتاب العزيز «وإذا رزقه الله تعالى حفظ كتابه، فليحذر أن يشتغل عنه بالحديث أو غيره

126 حوار مع الفضلاء الديمقراطيين ص:153

127 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 1/106

128 مقدمة ابن خلدون 595

من العلوم اشتغالاً يؤدي إلى نسيانه»[129].

2 - **تدريس الحديث وعلومه:**

يقول الخطيب: ثم الذي يتلو القرآن من العلوم أحادث رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وسننه، فيجب على الناس طلبها، إذ كانت أسس الشريعة وقاعدتها. قال تعالى «وما أتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا»[130] [131].

فلما كانت السنة النبوية هي الأصل الثاني في التشريع الإسلامي، فإنه يلزم العناية بدراستها، إذ لا يستقيم فهم كتاب الله تعالى إلا بالرجوع إليها. وقد استعرض الخطيب رحمه الله بعض الخطوات المنهجية في دراسة السنة حيث قال «وتبتدئ بسماع أمهات كتب أهل الأثر والأصول الجامعة للسنن، و أحقها بالتقديم كتب «الجامع والمسند» الصحيحان لمحمد بن إسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج، ومما يتلو الصحيحين سنن أبي داود وأبي عبد الرحمان النسوي وأبي عيسى الترمذي.. ثم كتب المسانيد الكبار مثل مسند أبي عبد الله أحمد بن حنبل، وأبي يعقوب إسحاق بن راهويه.. وابن أبي شيبة وأبي خيثمة زهير بن حرب...»، ثم الكتب المصنفة في الأحكام الجامعة للمسانيد وغير المسانيد مثل كتب ابن جريج وسعيد بن أبي عروبة.. وأما موطأ الإمام مالك بن أنس، فهو المقدم في هذا النوع، ويجب أن يبتدئ بذكره على كل كتاب غيره. ثم الكتب المتعلقة بعلل الأحاديث ومنها كتاب أحمد بن حنبل وعلي بن المديني، ثم تواريخ المحدثين وكلامهم في أحوال الرواة مثل كتاب يحيى بن معين وكتاب الجرح والتعديل لأبن أبي حاتم الرازي. ويرى على هذه الكتب كلها تاريخ محمد بن إسماعيل البخاري، فإذا أحرز صدراً لما ذكرناه، فلا عليه أن يشتغل بالسماع والكتب للفوائد المنثورة غير المدونة.. ويعمد لاستيعابها من دون انتخابها»[132] والحديث يشتمل على المسند والموقوف والمرسل والمقطوع والقوي والضعيف والصحيح والسقيم وغير ذلك من الأوصاف المختلفة والنعوت المتغايرة وفي كتب الكل فائدة...»[133].

---

129 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 1/108

130 سورة الحشر الآية:7

131 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع:1/108

132 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع182/2

133 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 2/188

ومما لاشك فيه، أن هذا البرنامج الدراسي مستوعب لكل دقائق علم الحديث، ولا غرابة في ذلك، فإن الخطيب كان فارساً يعز نظيره في هذا الفن، ولهذا الحديث النبوي يشكل عنده المرجع العمدة في دراسة كل العلوم الدائرة في ففلك الشرع، ولهذا وجدناه يتحدث عن «كتب أحاديث المغازي»، وعن « كتب أحاديث التفسير»، بمعنى تدوينها ودراستها.

3 - تدريس التفسير:

فالتفسير من أمهات علوم القرآن التي يسرت السبيل لفهمه وبيان معانيه. ويرى الخطيب أنه «يتضمن أحكاماً طريقها النقل»، «ولذلك يلزم كتبه ويجب حفظه»[134] إلا أنه ينبه على أن الكتب المصنفة فيه ليست خلوا من الأباطيل والإسرائيليات، حيث قال: «وأما الكتب المصنفة في تفسير القرآن، فمن أشهرها كتاب مقاتل بن سليمان... ولا أعلم في التفسير كتاباً مصنفاً يسلم من علة فيه، أو عري من مطعن عليه»[135].

4 - علم القراءات:

ينطلق الخطيب في تقريره دراسة علم القراءات من حديث «أنزل القرآن على سبعة أحرف»[136] على اعتبار أن هذا العلم يفيد الطالب في معرفة حقيقة هذه الأحرف ووجوه اختلافها...وما إلى ذلك مما هو مقرر في هذا الفن. ويؤكد الخطيب أن كل علم من العلوم الشرعية «يفتقر كتبه إلى الإسناد،فلو أسقطت أسانيده واقتصر على ألفاظه فسد أمره، ولم يثبت حكمه، لأن الأسانيد المتصلة شرط في صحته ولزوم العمل به.. وأما أخبار الصالحين وحكايات الزهاد والمتعبدين ومواعظ البلغاء وحكم الأدباء، فالأسانيد زينة لها، وليست شرطاً في تأديتها...»[137]، وعلى كل حال، فإن كتب الإسناد أولى سواء كان الحديث متعلقاً بالأحكام أو بغيرها.

5 - تدريس الشعر:

فالتبحر في العلوم الشرعية يقتضي معرفة تامة بالشعر، إذ فيه «الحكم النادرة،

---

134 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 2/193

135 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 163-162/2

136 أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف

137 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 2/213

والأمثال السائدة، وشواهد التفسير، ودلائل التأويل، فهو ديوان العرب، والمقيد للغاتها، ووجوه خطابها»[138] ،وهو بهذا مصدر فياض لا ينضب، لا غنى للطالب عن الانتهال منه.

6 - النحو والعربية:

فاللغة العربية هي الحبل الناظم لمضمون كلمة الله تعالى المجيدة للبشرية جمعاء «القرآن»، ولا سبيل إلى فهم القرآن إلا بالاستعانة بتلك الآلة المفتاح «العربية»، ومن ثم، فقد رغب الخطيب رحمه الله كثيراً في تعليمها حيث قال: «فينبغي للمحدث أن يتقي اللحن في روايته.. ولن يقدر على ذلك إلا بعد درسه النحو ومطالعته علم العربية»[139].

7 - تدريس المغازي:

إن من فوائد دراسة السير والمغازي الوقوف على حقيقة التطبيق الفعلي والتنزيل الواقعي للإسلام، مجسداً في سلوك النبي «صلى الله عليه وسلم» وممارسته، يقول الخطيب في هذا السياق: «تتعلق بمغازي رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أحكام كثيرة، فيجب كتبها والحفظ لها»[140]، ثم يضيف: «وليس في المغازي أصح من كتاب موسى بن عقبة مع صغره، وخلوه من أكثر ما يذكر في كتب غيره»[141]. ويضاف إلى دراسة السير والمغازي عند الخطيب دراسة «فضائل الصحابة ومناقبهم والنشر لمحاسن أعمالهم وسوابقهم»[142]، والمصنفات في هذا الباب كثيرة.

8 - كتب التواريخ:

فلا يخفى ما للتاريخ من أهمية في معرفة أخبار الأمم، واستخلاص الدروس والعبر، ولذلك فليس من العجب أن يدرجه الخطيب في سلك المواد التي يجدر بالطالب دراستها.وبإمعان النظر في مواد البرنامج الدراسي الذي عرضه الخطيب

---

138 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 2/197

139 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 2/24

140 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 2/195

141 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 2/195

142 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 2/117

«رحمه الله» في تضاعيف كتبه، يتبين أنه برنامج يعبر أصالة فكر الرجل رحمه الله واستناده إلى مصادر المرجعية الإسلامية الخالصة من كل شوائب الفكر الدخيل، وهو بهذا يتفق مع علماء المسلمين كابن جماعة الذي لخص مواد التدريس عند بقوله: «أن يبتدئ «الطالب» أولا بكتاب الله العزيز، فيتقنه حفظاً ويجتهد في إتقان تفسيره وسائر علومه، فإنه أصل العلوم... ثم يحفظ من كل فن مختصراً يجمع فيه بين طرفيه من الحديث وعلومه والأصول والنحو والتصريف...، وأن يحذر في ابتداء أمره من الاشتغال في الاختلاف بين العلماء أو بين الناس مطلقاً في العقليات والسمعيات...»[143].

ويظهر من خلال مواد هذا البرنامج الذي يقدمه النص، أنه انعكاس لرؤية صاحب ولانشغالاته، إذ يحض الطالب على الاشتغال بتحصيل العلوم الشرعية،ويحذره من الخوض في قضايا الفلسفة وعلم الكلام «السمعيات»، ولو نظرنا إلى البرنامج الذي يقترحه المهتمون بهذا المجال كإخوان الصفا مثلاً ،لوجدنا الصورة معكوسة، بحيث تأتي الفلسفة وعلم الكلام في مقدمة مواد البرنامج. يقول إخوان الصفا: «إن علومنا مأخوذة من أربعة كتب أحدها الكتب المصنفة على ألسنة الحكماء والفلاسفة والآخر الكتب المنزلية التي جاء بها الأنبياء...»[144].

ويظهر من هذا الكلام، أن غبش الخلط في التصور بين النبع الصافي ولوثات الروافد الفلسفية، قد حجب أبصار الفلاسفة «إخوان الصفا مثلاً» عن صياغة برنامج تعليمي يترجم الرؤية العقدية الإسلامية الصرفة.

والذي يهمنا من هذا المساق، هو التسليم يقينا من خلال المقايسة بين البرنامج الدراسي عند الفلاسفة ونظيره عند الخطيب و أضرابه من علماء السلف، بكون الخطيب رحمه الله قد قدم برنامجاً ينم عن رؤية منبثقة من معين الكتاب والسنة، غير مشوبة بلوثات التخمين البشري القاصر.

ثالثاً: آداب التدريس

أعني بآداب التدريس ما ينبغي للأستاذ أن يلتزم به في كل مرحلة من مراحل سير الدرس.

---

143 تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم ص:116

144 رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء.ج4

1 - آداب الاستفتاح:

«ليكن أول ما يفتتح به الكلام بعد التسمية، الحمد لله، ثم يتبع ذلك بذكر رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، ثم يذكر الدرس على تمكث وتؤدة من غير إسراع وعجلة»[145].

2 - القراءة النموذجية للنصوص:

يقول الخطيب: «وإذا قرأ المحدث «الأستاذ»كان أفضل وثوابه في ذلك أكمل، وإن عجز عن القراءة فأمر بها غيره جاز لأن القراءة عليه بمنزلة قراءة نفسه.. وينبغي أن يتخير للقراءة أفصح الحاضرين لساناً، وأوضحهم بياناً، وأحسنهم عبارة وأجودهم أداء»[146].

وبعبارة أخرى نقول: إنه خليق بالأستاذ أن يبدأ القراءة بنفسه، لأنه قدوة لغيره، علاوة على أن في القراءة «خاصة قراءة القرآن» أجراً، وليس الأستاذ أغنى من غيره عن الأجر، لكن في حالة العجز أو غيره من العوارض المانعة من القراءة، فلا ضير على الأستاذ إن كلف غيره بالقراءة على مسمع منه وتتبع لأجل التصحيح والتقويم.

3 - التشجيع والتحفيز:

فعلى الأستاذ أن يحرص على زرع الثقة، واجتثاث كل عوامل التردد وعدم الإقدام من نفوس تلاميذه، بتشجيعهم على طرح الأسئلة وتفعيل جو النقاش داخل الفصل، وذلك بتدعيم كل صاحب جواب صواب، وملاطفة كل صاحب جواب خطأ.

يقول الخطيب «رحمه الله»: «وإذا أجاب المسؤول بالصواب، فعلى الفقيه أن يعرفه إصابته ويهنئه بذلك ليزداد في العلم رغبة وله مسرة.. وإذا أخطأ المسؤول في الجواب، فعلى الفقيه «الأستاذ»أن يعلمه ذلك ليأخذ نفسه بإنعام النظر، ويتحفظ من التقصير خوف الزلل.. ويجوز للفقيه مداعبة من اخطأ ليزيل عنه الخجل بذلك.. وينبغي أن يبين لمن أخطأ خطأه في لين ورفق من غير عنف ولا خرق»[147].

وبهذا السلوك الفاضل يكون الأستاذ قد شجع التلاميذ على المشاركة في بناء الدرس، ويكون أيضاً قد بذر في نفوسهم بذور الجرأة وعدم النكوص عن الجواب،

---

145 الفقيه والمتفقه 2/123

146 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 282-1/281

147 الفقيه والمتفقه2/136

وخدمة لهذا المبتغى النبيل يجدر بالأستاذ أن يعود تلاميذه على عدم التسرع في الرد على من أخطأ في الجواب بحضرته قبل مبادرته. يقول الخطيب في هذا المعنى «وينبغي للمتعلمين ألا يردوا على من أخطأ بحضرة العالم «الأستاذ»، ويتركوا العالم حتى يكون هو الذي يرد عليه»[148].

وفي هذا وأد في المهد لكل بذور المشاحنة بين التلاميذ. وأما إذا أخطأ الفقيه الأستاذ وتبين لصاحبه الآخذ عنه خطؤه فإن الصاحب يتلطف في رده عليه[149]،وهذا هو مقتضى السلوك الإنساني النبيل، فليس الأستاذ معصوماً من الخطأ، وليس عيباً أن يخطئ، وإنما العيب أن يستغل خطؤه للتشنيع عليه والتنقيص من شخصيته وفضله، والأحرى بالتلميذ أن يعي هذا الأمر وعيا تاما، ويكون رفيقا متأدبا في رده على الأستاذ وتنبيهه إلى خطئه.

4 - التقويم والتدعيم:

إن القصد من التقويم هو معرفة مدى فهم التلاميذ للدرس واستيعابهم له فضلاً عن أنه أداة من أدوات التذكير والتدعيم. وليس ثمة طريقة يتيمة أو وحيدة للممارسة التقويم، فقد يكون بالأسئلة وهو أفضل وأقوم، وقد يكون بمجرد إعادة الأستاذ لما سبق ذكره. ولعل هذه هي الطريقة التي أشار إليها الخطيب رحمه الله بقوله: «فإذا فرغ «الأستاذ من درسه» أعاد ما ذكره ليتقنوا حفظه عنه...ثم يتحول الذين حضروا الدرس فيتذاكرونه ويعيد بعضهم على بعض»[150]، فالمهم جداً، هو أن يتم استيعاب الدرس جيداً، ولا حرج على التلاميذ إن آزر بعضهم بعضاً في مناقشة الدرس بعد انتهائه كي يترسخ فهمه.

5 - ختم المجلس - الدرس:

يرى الخطيب أنه من الأفضل والأنسب أن يختم المجلس أو الدرس العلمي «بالحكايات ومستحسن النوادر...»[151]، ولاسيما تلك التي تخدم أهدافاً تربوية معينة، إذ في ذلك ترويح عن النفس. إلا أن الختم بمستطرف الحكايات والنوادر،

---

148 الفقيه والمتفقه 2/138

149 الفقيه والمتفقه 2/138

150 الفقيه والمتفقه 2/127/128

151 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع2/129

ينبغي ألا يكون ديدن الأستاذ في كل وقت وحين، فهو بصير بما يصلح لمخاطبيه في كل موقف تعليمي.

6 - دعاء الختم:

عن مسك الختام في كل مجلس يجب أن يكون هو ذكر الله تعالى والاستغفار والدعاء بدعاء كفارة المجلس المأثور[152]،ففي ذلك انتهاج للهدى النبوي، وتمييز لمجلس العلم وصيانة له عن عوالم الغفلة والميوعة.

152 سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك» رواه أبو داود

المبحث الرابع:

طرق التعلم ووسائله

أولاً: طرق التعلم

أقصد بطرق التعلم أيسر السبل للتحصيل العلمي، وبالنظر إلى أدبيات الخطيب نجد بسطاً لها ببيان دور الشروط النفسية والإيمانية في التحصيل، ومروراً ببيان وجوب توفير الظروف الملائمة للتحصيل وانتهاء بتوضيح طرق التحصيل من مذاكرة وحفظ.

أ - الشروط النفسية والإيمانية:

يقول الخطيب في «ذكر الأسباب التي يستعان بها على الحفظ» «التحصيل»، «ينبغي أن يكون قصد الطالب بالحفظ ابتغاء وجه الله تعالى، والنصيحة للمسلمين والإيضاح والتبيين، وليجتنب ارتكاب المحرمات ومواقعة الأمور المحظورات، ويأخذ نفسه باتباع أوامر الحديث والعمل به، ويطيب كسبه ويصلح غذاءه ويقل طعامه»[153]، وذلك حتى ينخرط نشاطه وتحصيله العلمي في سلك العبودية لله عز وجل.

ب - مراعاة الظروف الملائمة للتحصيل:

وأعني بالظروف الملائمة للتحصيل التماس أنسب الأوقات وأفضل الأماكن المعينة للطالب على حسن التحصيل.

• زمان التحصيل:

إن «للحفظ ساعات ينبغي لمن أراد التحفظ «التحصيل» أن يراعيها.. فأجود الأوقات الأسحار ثم بعدها وقت انتصاف النهار وبعدها الغدوات دون العشيات، وحفظ الليل أصلح من حفظ النهار، قيل لبعضهم: بم أدركت العلم؟ قال: بالمصباح والجلوس إلى الصباح...»[154].

• مكان التحصيل:

«للحفظ أماكن ينبغي للمتحفظ أن يلزمها.. وأجود أماكن الحفظ الغرف دون السفل، وكل موضوع بعيد مما يلهي، وخلا القلب فيه مما يفزعه فيشغله أو يغلب عليه فيمنعه، وليس بالمحمود أن يتحفظ الرجل بحضرة النبات والخضرة ولا على

---

153 الفقيه والمتفقه 2/103

154 المصدر نفسه 2/104

شطوط الأنهار ولا على قوارع الطرق، فليس يعدم في هذه الأماكن غالباً ما يمنع من خلو القلب وصفاء السر»[155].

• حال المحصل:

«أوقات الجوع أحمد للتحفظ «التحصيل» من أوقات الشبع، وينبغي للمتحفظ أن يتفقد من نفسه حال الجوع، فإن بعض الناس إن أصابته شدة الجوع والتهابه لم يحفظ فليطفئ ذلك عن نفسه بالشيء الخفيف اليسير كمص الرمان وما أشبه ذلك، ولا يكثر الأكل، وليتعاهد نفسه بإخراج الدم «الحجامة»، فهو يزيد في العقل والحفظ.. ومن أنفع ما استعمل إصلاح الغذاء واجتناب الأطعمة الرديئة وتنقية الطبع من الأخلاط الفاسدة...»[156].

وصفوة القول إن جملة ما يعين على الفهم والتحصيل، هو الخلو من الشواغل والملهيات، ولذلك فمن الأنسب التماس الطالب للاماكن الهادئة الخالية من كل ما يشغل البال ويشرد بالذهن علاوة على اختياره الأوقات التي يخيم فيها السكون والهدوء، مما يعين على قلة التهمم بالشواغل، «وليس يكون قلة الغم إلا مع خلو السر وفراغ القلب، والليل أقرب الأوقات لذلك»[157].

جـ - طرق التحصيل أو التعليم:

لا يكفي توافر الشروط الأنفة الذكر لتسنم أعلى مراتب التحصيل بل لا بد من انتهاج سبل وطرائق للحفظ والتزام آداب وضوابط لترسيخ المحفوظ وتثبيت المقروء، ولعل رأس هذه الآداب التدرج في الحفظ والتحصيل، فلا «يأخذ الطالب نفسه بما لا يطيق، بل يقتصر على اليسير الذي يضبطه ويحكم حفظه ويتقنه»[158]، لان «القلب جارحة من الجوارح تحتمل أشياء وتعجز عن أشياء... ومن الناس من يحفظ عشر ورقات في ساعة، ومنهم من لا يحفظ نصف ورقة في أيام. فإذا ذهب الذي مقدار حفظه نصف صفحة يروم أن يحفظ عشر ورقات تشبها، لحقه الملل وأدركه الضجر ونسي ما حفظ، ولم ينتفع بما سمع، فليقتصر كل امرئ من نفسه

---

155 المصدر نفسه 2/105

156 الفقيه والمتفقه ص:106

157 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 2/264

158 المصدر نفسه 1/231

على مقدار ما لا يستفرغ كل نشاطه، فإن ذلك أعون على التعليم من الذهن الجيد والمعلم الحاذق...»[159]، وهذا مقتضى الموضوعية والتؤدة وعدم التهور والاستعجال، يقول الإمام الزرنوجي في هذا السياق: قال مشايخنا رحمهم الله تعالى: ينبغي أن يكون قدر السبق للمبتدئ قدر ما يمكن ضبطه بالإعادة مرتين، ويزيد كل يوم كلمة حتى إنه إن طال السبق وكثر يمكن ضبطه مرتين، ويزيد بالرفق والتدريج.. وينبغي أن يبتدئ بشيء يكون أقرب إلى فهمه»[160]،وبكلمة جامعة فإن الضوابط التي يجب مراعاتها في التحصيل والحفظ تتلخص في:

- التدرج في الحفظ.
- البدء بالأسهل والأقرب إلى الفهم «أو الانطلاق من البسيط نحو المعقد».
- التكرار أو بتعبير الخطيب: «تكرير المحفوظ على القلب»[161].

يقول الإمام الزرنوجي في هذا الصدد: وينبغي لطالب العلم أن يعد ويقدر لنفسه تقديراً في التكرار، فإنه لا يستقر قلبه حتى يبلغ ذلك المبلغ.. وينبغي لطالب العلم أن يكرر سبق الأمس خمس مرات، وسبق اليوم الذي قبل الأمس أربع مرات، والسبق الذي قبله ثلاث مرات، والذي قبله اثنتين والذي قبله مرة واحدة فهذا أدعى إلى الحفظ...[162]، فإن دوام تعهد الدروس بالنظر والتكرار، يزيدها رسوخاً في القلب، وينبغي أن يكون التكرار والحفظ بالجهر، فإنه يطرد كل عوامل الخور والكسل والفتور، يقول الخطيب: «وينبغي لمن طالع في كتابه أن يجهر بقراءته قدر ما يسمعه»[163].

ويقول الإمام الزرنوجي: «وينبغي ألا يعتاد «الطالب» المخافتة في التكرار لأن الدرس والتكرار، ينبغي أن يكون بقوة ونشاط، ولا يجهر جهراً يجهد نفسه كيلا ينقطع عن التكرار، فخير الأمور أوسطها»[164].

ولعله من نافلة القول أن نشير إلى أن تكرار الدرس بالجهر كي يترسخ، لا يتخذ مظهر النشاط الذاتي الذي يمارسه المتعلم بمفرده، بل قد ينتظم في سلك نشاط

---

159 الفقيه والمتفقه2/107

160 تعليم المتعلم في طريق التعلم ص:69

161 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 2/264

162 تعليم المتعلم في طريق التعلم ص:79

163 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 2/266

164 تعليم المتعلم في طريق التعلم ص:80

جماعي يمارسه الطلبة فيما بينهم في إطار «المذاكرة»: يقول الخطيب: «التقى ابن أبي ليلى وعبد الله بن شداد فتذاكرا الحديث، فسمعت أحدهما يقول للآخر: يرحمك الله، فرب حديث أحييته في صدري كان قد مات.. وقال الخليل بن أحمد: ذاكر بعلمك تذكر ما عندك وتستفيد ما ليس عندك»[165]. فللمذاكرة – إذن – وظيفتان: وظيفة تعليمية حين يتعلق الأمر بشيء مجهول أو غير معلوم لدى الطرفين «المتذاكرين».

ووظيفة تقويمية وتذكيرية، يعرف من خلالها مدى ضبط الطرفين للمعلومات، ويذكر بعضهم بعضاً بما نسيه، او يصحح له ما أثبته خطأ، وفي هذا الإطار، تندرج المذاكرة مع الشيخ «الأستاذ»من أجل تصحيح الأخطاء ومعرفة مواقع الزلل. يقول الخطيب: ويستحب لمن حفظ عن شيخ «أستاذ» حديث أن يعرضه عليه ليصححه له، ويرده عن خطأ إن كان سبق إلى حفظه إياه»[166].

ثانياً: وسائل التعليم:

يراد بوسائل التعليم مختلف الأدوات التي يوظفها الطالب/ المتعلم في تحصيله العلم، والتي تتنوع إلى: وسائل كتابة ووسائل قراءة.

أ - وسائل الكتابة:

تستمد الكتابة ضرورتها وأهميتها من كونها وسيلة لا غنى عنها لحفظ المعلومات وصونها من فعل مؤثرات النسيان والضياع. قال الخطيب البغدادي في قوله تعالى: «ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله»[167]، فلما أمر الله تعالى بكتابة الدين حفظاً له واحتياطاً عليه وإشفاقاً من دخول الريب فيه، كان العلم الذي حفظه أصعب من حفظ الدين أحرى أن تباح كتابته خوفاً من دخول الريب والشك[168]، فلا يكفي التعويل في حفظه على نباهة الذاكرة وقوة الحافظة، بل لا بد ان تدعمها المبادرة إلى الكتابة والتقييد بمختلف وسائله وأدواته التي عبر عنها الخطيب البغدادي بآلات النسخ، ومنها:

---

165 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 274-2/273

166 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 1/235

167 سورة البقرة الأية:86

168 تقييد العلم ص 71-70

1 - الحبر:

يقول الخطيب رحمه الله: «ينبغي أن يكتب الحديث «والعلم كافة» بالسواد ثم بالحبر خاصة من دون المداد، لأن السواد أصبغ الألوان، والحبر أبقاها على مر الدهور والأزمان، وهو آله ذوي العلم، وعدة أهل المعرفة والفهم»[169].

2 - القلم:

قال الله تعالى: «اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم»[170].

إن التدبر المتأني لهذه الآية الكريمة يوقفنا على أهم مكونات العملية التعليمية، ألا وهي: المعلم «الله»، والمتعلم «الإنسان» والرسالة أو الخطاب «العلم»، أما القلم فهو واسطة العقد، وهو الحبل الناظم لمضمون تلك الرسالة. قال قتادة: «إن القلم نعمة من الله عظيمة، ولو لا ذلك لم يقم دين ولم يصلح عيش»[171]، فالدين إنما يحفظ بالتدوين، والدنيا إنما تصلح وتنضبط بحاكمية الدين.

وقد قدم الخطيب رحمه الله وصفاً دقيقاً لأمثل الأقلام وأصلحها للاستعمال حيث قال: «ينبغي أن لا يكون قلم صاحب الحديث «والمتعلم عامة» أصم صلباً، فإن هذه الصفة تمنع سرعة الجري، ولا يكون رخواً فيسرع إليه الحفا. ويتخذ أملس العود، مزال العقود، وتوسع فتحته وتطال جلفته[172] وتحرف قطته»[173] [174]، وذلك بالسكين «المبراة بلسان العصر»، وينبغي ألا تستعمل سكين الأقلام إلا في بريها، وتكون رقيقة الشفرة، ماضية الحد، صافية الحديد..[175]

إنه تقديم رائع لجانب من منجزات الأسلاف وعطاءاتهم على مستوى عصرهم «أقلام من عود يتم بريها بسكين خاصة»، ولا يعنينا الآن أن هذه الأشكال والأدوات قد أصبحت في خبر كان، وتقادمت بفعل مرور الزمن وارتقاء العقل الإنساني في سلم الإبداع والإنجاز الحضاري، وإنما يهمنا أساساً أن نأخذ العبرة مما يفصح عنه كلام الخطيب «رحمه الله» من همة عالية في اختيار أرقى أدوات الكتابة وأنسبها لتدوين العلم.

---

169 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 1/250

170 سورة العلق الآية5-3

171 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 1/255

172 الجلفة بفتح الجيم وكسرها هي مبرأ القلم

173 قطته: يقال قط القلم: قطع رأسه عرضا في بريه، ومعنى تحرف قطته أي تمال إلى جهة اليمين

174 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 1/254

175 نفس المصدر 1/256

3 - **الصحف والدفاتر:**

يقول الخطيب: «إنما كانوا يكتبون في الألواح لكي يحفظوا المكتوب ثم يمحوا الكتابة، فمن أراد رسم المسموع للتأبيد، ومال في كتابته إلى البقاء والتخليد فكونه في الصحف أولى، وتضمينه الكراريس أحفظ له وأبقى...»[176]، فالذاكرة مهما بلغت درجة حفظها واستيعابها للمعلومات، لا تعدو أن تكون منخالاً أو غربالاً لا يمسك سوى النزر القليل، لذا كان من الضروري الاعتماد في حفظ العلم على وسائل تضمن الحفاظ عليه نقياً غير مشوه، من قبيل الصحف والكراسات.

4 - **الخط:**

إن تظافر الحبر النقي والقلم الممتاز والصحيفة البيضاء النقية ضرورة تمليها دوافع حفظ العلم كما أسلفنا، إلا أنها ليست كافية لتسنم ذرى الإحسان في العمل، ما لم تصحبها مهارة يد المتعلم وتفننها في الرسم على الورق، ومن ثم فقد عقد الخطيب رحمه الله باباً خاصاً ترجم له بباب تحسين الخط وتجويده، مما يعني بأن الخط ملكة تصقل بالمراس.

وفائدة الخط الجيد أنه يزيد الحق وضوحاً وبهاء، ويجعله يزدان في عين القارئ، لذلك كره الخطيب وابن جماعة الخط الدقيق الذي تكل العين وتمل في قراءته. قال الخطيب رحمه الله: «لا ينبغي أن يكتب الطالب خطاً دقيقاً إلا في حال العذر، مثل أن يكون فقيراً لا يجد من الكاغد «الورق» سعة، أو يكون مسافراً فيدق خطه ليخفف حمل كتابه...»[177]. وقال ابن جماعة: «ينبغي أن يجتنب «المتعلم» الكتابة الدقيقة في النسخ، فإن الخط علامة، فأبينه أحسنه»[178].

ب- وسائل القراءة:

إن القراءة هي «الوسيلة الأساسية للتحصيل.. والاعتماد على النفس، التحصيل بالرجوع إلى الكتب لجمع المادة يحقق مبدأ الممارسة على خير وجه»[179]، وخليق بالمتعلم أن يألف الاحتكاك بالكتب لتَرسخ قدمه في ميدان المعرفة، ولا يقنع بالفتات

---

176 نفس المصدر1/230

177 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 1/261

178 تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم ص:177

179 التعليم: أسسه ونظرياته وتطبيقاته ص:418

اليسير الذي تعرضه الكتب المدرسية بما تحمله في طياتها من معايب نابعة من طبيعة محتوياتها وميولات توجهات واضعيها، وليس في وسعنا الآن أن نفصل في هذا الأمر، وإنما الذي يعنينا - تبعاً لموضوع البحث - هو عرض ما كتبه الخطيب «رحمه الله» من فوائد النظر في الكتب.

قال رحمه الله: «ومع ما في الكتب من المنافع العميمة والمفاخر العظيمة، فهي أكرم مال وأنفس جمال، والكتاب آمن جليس، وأسلم نديم وأفصح كليم..»[180] وبهذا يفوق واضعه منزلة وفضلاً، فهو «يقرأ بكل مكان، ويظهر ما فيه على كل لسان، وموجود في كل زمان مع تفاوت الأعصار وبُعد ما بين الأمصار، وذلك مستحيل في واضع الكتاب..»[181].

وبكلمة أخرى، فإن الكتاب يمثل ثورة ضد كل القيود، قيود الزمن والمكان، فهو يكسر الحدود الوهمية بين البلدان، ويطوي حقب الزمن، فيصل بين الأجيال المتلاحقة، ويربط حاضرها بماضيها. وقد تنبه السلف لهذه الحقيقة، فعنوا به اقتناء ومدارسة وحفظا وصيانة، حتى قال بعضهم: الكتاب أمانة وهو حقيق بالصيانة [182].

وقال بعضهم: «ينبغي للمرء أن يذخر أنواع العلوم، وإن لم تكن له بمعلوم، وأن يستكثر منها ولا يعتقد الغنى عنها، فإنه إن استغنى عنها في حال احتاج إليها في حال، وإن سئمها في وقت ارتاح إليها في وقت.. وأن لا يسرع ويعجل فيندم.. فربما عجل المرء على نفسه بإخراج كتاب عن يده ثم رامه فتعذر عليه مرامه، وابتغى إليه وصولاً فلم يجد إليه سبيلاً»[183].

فالكتاب - إذن - ذخيرة ثمينة حري بصاحبها ألا يبيعها مهما كانت الدواعي المقتضية لذلك، ولا يعيرها إلا لمن أنس منه المحافظة عليها وردها غير مشوهة ولا معيبة، قال الخطيب رحمه الله «وكان بعض أهل العلم، إذا أتاه رجل يستفيد منه علما او يستعير منه كتاباً امتحنه، فإن وجده أهلاً له أعاره وإلا منعه»[184]، وقد نقل السمعاني عن بعضهم شعرا يتعلل فيه بالاستنكاف عن اعارة الكتب للغير:

---

180 تقييد العلم ص 121

181 المصدر نفسه ص: 118

182 تقييد العلم ص:148

183 المصدر نفسه ص:137

184 المصدر نفسه ص:146

«لا تعيرنّ دفترا
لا بوجه ولا سبب
كم كتاب أعرته
زعموا أنه ذهب
فاذا طلبته
أوجب الصد والغضب»[185].

فان لم يكن من الاعارة بدٌّ، فلا أقل من أخذ الرهن مقابل ذلك. قال الناظم:
أعر الدفتر للصاحب
بالرهن الوثيق
إنه ليس قبيحا أخذ
رهن من صديق»[186].

من آداب تقييد العلم:

1 - من آداب الكتابة أن:

«يبدأ ببسم الله الرحمان الرحيم في كل كتاب من كتب العلم...»[187]، وينبغي إذا كتب اسم النبي «صلى الله عليه وسلم» أن يكتب معه الصلاة كاملة[188]، ولا يكتفي بكتابة صاد أو «صلعم»، فإن ذلك نقص في التأدب مع الرسول «صلى الله عليه وسلم».

2 - الحرص على توثيق المعلومات:

أ - بنسبة كل كلام وعزوه إلى قائله، ولهذا يرى الخطيب «أن يكتب الطالب بعد التسمية اسم الشيخ الذي سمع منه الكتاب وكنيته ونسبه.. ويسوق ما سمعه من الشيخ على لفظه...»، «وإذا كتب الطالب الكتاب المسموع، فينبغي أن يكتب فوق سطر التسمية أسماء من سمع معه، وتاريخ وقت السماع.. وإن أحب كتب ذلك في حاشية

---

185 أدب الاملاء والاستملاء ص 196
186 أدب الاملاء والاستملاء ص 196
187 الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 1/263
188 نفس المصدر 1/270

أول ورقة من الكتاب.. وإن كان سماعه الكتاب في مجالس عدة، كتب عند انتهاء السماع في كل مجلس علامة البلاغ. ويكتب في الذي يليه التسميع والتاريخ[189].

إن اشتراط الخطيب كتابة أسماء من شهد السماع / الدرس، أمر مبعثه الحرص على الزيادة في التوثيق، وإلا فإن كتابة تاريخ المجلس واسم الشيخ صاحب السماع، فيه كفاية.

ب ـ الحرص على نقل الصواب وتصحيح الأخطاء، اعتماداً على القاعدة المشهورة «إن كنت ناقلاً فالصحة»، يقول الخطيب في باب وجوب المعارضة بالكتاب لتصحيحه وإزالة الشك والارتياب: «يجب على من كتب نسخة من أصل بعض الشيوخ، أن يعارض نسخته بالأصل، فإن ذلك شرط في صحة الرواية من الكتاب...»[190]، وإن شئنا أن نوسع مجال المعارضة والمقابلة بالأصل، لقلنا أنه على كل متعلم أن يقابل ما كتبه بما سجله زملاؤه «ليزيل التحريف ويغير الخطأ والتصحيف»[191]، وقد اعتبر السمعاني التدوين واستعمال الكتاب ضرورة لا غنى عنها للتأكد من صحة المعلومات، حيث قال: «ولا يحدث إلا من كتابه فان الحفظ خوّان»[192].

---

189 المصدر نفسه 1/268

190 المصدر نفسه 1/275

191 المصدر نفسه1/276

192 أدب الاملاء والاستملاء- ص 57

خاتمة

تتويجاً لهذا المحصول الزهيد والسفر القاصد في رحاب الفكر التربوي عند الخطيب البغدادي، لا يسعني إلا أن أقدم خلاصة المستفاد:

لقد ألفيت فكر الخطيب – رحمه الله – التربوي مغموراً الكثير من العبر والدروس المفيدة لرجل التربية والتعليم، وأختزلها – إيثاراً للاختصار- فيما يلي:

إن نمط العلاقة التربوية بين المعلم والمتعلم عند الخطيب البغدادي يصلح أنموذجاً تقام على أساسه العلاقات التربوية في مؤسساتنا التعليمية، كي يعاد بناؤها على قيم الرحمة والرفق والتواضع بديلاً عن الكبرياء والتحاقد والخبث ويبس العاطفة.

إن خدمة مواد البرنامج التعليمي عند الخطيب لأهداف الدين وغاياته السامية نابع من إيمانه بالمثل والمبادئ العليا للأمة العربية الإسلامية. وذاك عين الصدق والانسجام بين القول والفعل،أما المعيب فهو ازورار بعض مناهجنا عن الفلسفة والمبادئ العامة التي نزين بها ديباجة الدساتير والمواثيق التي تنظم الفعل التربوي بمؤسساتنا، وكم توشحت وتبجحت الدساتير باحترام حقوق الانسان من دون أن تجد تلك الحقوق طريقها إلى كثير من مناهجنا وبرامجنا التربوية، ولا أدل على ذلك من ضحالة وضآلة المواد المتصلة بالحقوق الثقافية والسياسية والاقتصادية في المقررات المدرسية؟.

لقد تبين لي من خلال التعاطي مع الفكر التربوي للخطيب البغدادي، أن كتب التراث الإسلامي مكاسب ثمينة يجب العكوف على دراستها من أجل تأسيس ثقافة مقاومة للاستلاب الفكري وإصلاح مناهج الفكر في ضوء الكتاب والسنة بوصفهما الينبوع الذي تخرج و تنبجس منه الأفكار القادرة على استئناف الحياة الإسلامية من جديد، بإذن من له الحول والقوة. لا إله إلا هو.

ثبت المصادر والمراجع

1 -أدب الإملاء والاستملاء – للسمعاني- تحقيق سعيد محمد اللحام-ط 1/دار الهلال –بيروت- 1989/1409

2 -إحياء علوم الدين تأليف الغزالي «1994-1414» دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

3 -اقتضاء العلم تأليف الخطيب البغدادي تحقيق محمد ناصر الألباني الطبعة الخامسة«1984-1404» المكتب الإسلامي بيروت.

4 -أزمة التعليم المعاصر وحلولها الإسلامية، تأليف زغلول راغب النجار. الطبعة الأولى «1990-1410» المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

5 - الأنساب تأليف الإمام السمعاني. الطبعة الثالثة «1980-1400» الناشر محمد أمين دمج بيروت لبنان

6 -ايها الولد. تأليف أبي حامد الغزالي تحقيق علي محيي الدين وعلي القرة داغي - دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع.

7 - تذكرة الحفاظ تأليف شمس الدين الذهبي. دار إحياء التراث العربي. بيروت لبنان

8 - تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم. تأليف أنب جماعة. دار الكتب العلمية بيروت لبنان

9 -تقييد العلم تأليف الخطيب البغدادي تحقيق يوسف العش. الطبعة الثانية «1974-1394» دار إحياء السنة النبوية.

10 -التعليم: أسسه نظرياته وتطبيقاته تأليف إبراهيم وجيه محمود «طبعة-1983 1403» مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة

11 -تعليم المتعلم في طريق التعلم تأليف برهان الدين الزرنوجي. تحقيق وتقديم صلاح محمد الخيمي ونذير حمدان الطبعة الثانية «1987-1407» دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع. دمشق.

12 -الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع تأليف الخطيب البغدادي. تحقيق محمود الطحان مكتبة المعارف. الرياض.

13 -حوار مع الفضلاء الديمقراطيين تأليف عبد السلام ياسين. الطبعة الأولى

«1414-1994» مطبوعات الأفق. البيضاء.

14 -ردود على أطروحات علمانية . تأليف منير شفيق الطبعة الرابعة «1406-1986» دار قرطبة للطباعة والنشر.

15 -رسالة الأستاذ تربية وتعليما وتغييرا تأليف منير الركراكي وعمر أمكاسو. الطبعة الأولى مطبوعات الأفق والبيضاء.

16 -رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء. دار صادر بيروت.

17 -الرسالة المفصلة لإخوان المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين تأليف الإمام أبو الحسن القابسي نشرها محمد فؤاد الأهواني في «التربية الإسلامية» الطبعة الثانية دار المعارف مصر.

18 -سير أعلام النبلاء تأليف شمس الدين الذهبي. تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي الطبعة السابعة «1990-1410» مؤسسة الرسالة

19 -سنن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد الطبعة الثانية «1950-1369» مطبعة السعادة مصر.

20 -شذرات الذهب في أخبار من ذهب تأليف أبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع

21 - صحيح البخاري للإمام محمد بن إسماعيل البخاري شرح وتحقيق الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي. الطبعة الأولى «1987-1407». دار القلم بيروت.

22 - طبقات الشافعية الكبرى للإمام تاج الدين تقي الدين السبكي. دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت.

23 - الفقيه والمتفقه تأليف الخطيب البغدادي . الطبعة الثانية «1400-1980» بيروت لبنان.

24 - لسان العرب ابن منظور. دار صادر بيروت.

25 - مدخل إلى إسلامية المعرفة تأليف عماد الدين خليل، الطبعة الثالثة «1412-1992» دار الأمان الرباط.

26 - المدرس والتلاميذ: أية علاقة؟ سلسلة علوم التربية العدد الثالث «1409-1989» تأليف جماعة من الباحثين، دار الخطابي للطباعة والنشر البيضاء.

27 - مقدمة ابن خلدون تأليف عبد الرحمان ابن خلدون دار الجليل بيروت.

28 - مقاييس اللغة تأليف ابن فارس تحقيق عبد السلام هارون دار الفكر. «1979».

29 - مراتب العلوم. رسائل ابن حزم الجزء الرابع تحقيق د. إحسان عباس. المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

30 - معجم الأدباء تأليف ياقوت الحموي. الطبعة الثالثة «1980-1400» دار الفكر للطباعة والنشر بيروت.

31 - مواقف الداعية التعبيرية تأليف عبد الله علوان الطبعة الثانية «1986-1406» دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع. القاهرة.

32 - وفيات الأعيان وأنباء الزمان تأليف أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان. تحقيق إحسان عباس دار الثقافة بيروت لبنان.

يصدر كل شهر
ويوزع مجانا مع مجلة تراث



د. بوزيد الغلى

باحث وتربوي مغربي، حاصل على درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية، في موضوع المناظرات الفقهية حول عقد المعاوضة في الشريعة والقانون من كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط. وحاصل على دبلوم الدراسات المعمقة في الفكر الإسلامي والعقيدة.

له عدد من الدراسات والأبحاث المنشورة منها (زاوية آسا - جدل التاريخ والأسطورة)، و(صورة الطفل في المجتمع الصحراوي من خلال الأمثال الشعبية)، و(الخربشات أو الكتابة على الجدران والطاولات-عبث أم دوافع حقيقية، دراسة ميدانية).

هذا الكتاب

يتناول هذا البحث قضية التربية والتعليم عند علم من أعلام المسلمين (الخطيب البغدادي)، وهو أمر يكتسي أهمية بالغة لاعتبارات أبرزها أن بلورة نظرية إسلامية جامعة في التربية والتعليم، لا تزال تحتاج إلى توفر تراكم فكري تحدثه البحوث والدراسات في الفكر التربوي عند العرب المسلمين من أجل أن تسهل المقارنة والتمحيص تمهيداً للبناء والتأسيس.

وتنبع أهمية هذه الدراسة - على صغر حجمها- من أن صفة (الموسوعية) التي ميزت غالبية منجز علماء السلف ومفكريهم، جعلت من مؤلفاتهم مزيجاً من الأفكار المنتسبة إلى فروع مختلفة من العلوم (تربية، لغة، سياسة، اقتصاد...) غير أنها غير منظمة ولا منسقة بالشكل الذي يفيد الباحث ويوفر عليه عناء الجمع والتتبع، فهي ليست إلا نُثاراً فكريّاً ... مشروع منهجي متكامل.

وينشأ عن هذا، أن الفكرَ التربو... الخطيب البغدادي، موضوع هذه ال... جاء منثوراً أو متناثراً في مواط... من كتبه. ويكفي هذه الدراسة فخ... الأولى التي تتقصى نصوص هذ... فتجمعها، وترتبها وتنظمها حسب... مضامينها ومعانيها، في محاولة لوضع تصميم يستوعبها، أو يكاد، ويفتح الباب للباحثين لاستكمال هذه الطريق المحمودة.

